دراسات فى الحركة الوطنية

ثورة العراق

محمد عوده

محمد عودة



دار النديم

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة



حينمـــا قامت ثورة العراق كتبت صحيفـة الايكونوميست البريطانية تقول « سيحمل الموقف الحاضر فى الشرق الأوسط أكبر تهديد لاستقرار هذه المنطقة وربما لسلام العالم كله منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية . وان هذه اللحظة أسوأ بكثير من أن تجعلنا نفكر فى شىء سوى تقدير الأخطار التى ستواجهنا ، لأن الموقف لا يمكن أن يزداد سوءا عما هو عليه بعد انهيار العراق وتدهور مركز الغرب الى هذا الحد ، واذا ما وازنا بين التدخل العسكرى وعدم التدخل فان نتائج عـــدم التدخل تعتبر أكثر ضررا لمصالحنا الاقتصـــادية والسياسية والاستراتيجية من نتائج التدخل » .

« ويمكننا أن نقول أن نورى السعيد قد حذرنا مقدما بأن الغرب ماكان ليفقد العراق لو أنه استجاب سريعا لطلبات شمعون بالتدخل فى لبنان ، والآن وقد هرب الجواد العراقى فان القوات الأمريكيـــة تنزل فى بيروت والقوات البريطانية تنزل فى عمان على أمل أن لايترك باب الاسطبل مفتوحا بعد ذلك لهروب جياد اخرى » .

ولم يعبر عن فزع الغرب وعن سطحيته حتى فى أدق الظروف وأحرجها مثل تعليق الايكونوميست لأن هذه هى صحيفة المصالح الاقتصادية البريطانية الكبيرة » وهى صـــحيفة اشتهرت بالرزانة والاتزان ككل الصحف التى تحسب كل شىء بحساب المال والتى تعبر فى كل شىء عن حذر وحرص رجال المال .

وقد كانت ضـــد مغامرة السويس (العدوان الثلاثى على مصر) وقاومته بضراوة » ولكنها قامت بعد ثورة العراق لتدعو علنا وصراحة للتدخل « فقد فتحت الجياد باب الاسطبل المغلق وهرب اثمنها ولابد

أن يمنع بأى تمن هرب أى جواد آخر بل لا بد من استرداد الهارب الكبير » كما قالت » وهذا مدى فهمهم للعرب ولثورات الشعوب .

ولهذا لابد لتقدير مدى ومغزى الثورة العراقية من استعراض دور العراق التاريخى والمعاصر فى :

١ ـ الخطط الاستعمارية البريطانية سواء البريطانية القديمة أو البريطانية المستحدثة وما سمى « النيو امبرياليزم » .

٢ ـ الخطط الاستعمارية الأمريكية فى الشرق الأوسط ، سواء القديمة منذ أوائل هذا القرن الى مابعد الحرب العالمية الثانية وحتى قيام المستر دالاس وسياسته .

٣ ـ الثورة العربية باهدافها الكبرى وهى تحرير الامة العربية وتوحيد الوطن العربى واعادة بناء الحياة العربية .

الفصل الأول

العراق والاستعمارية البريطانية

ماســـاة حقا رؤية هذا المشــهد ...
الامبرا طورية العظيمة المهيبة المتحكمة المسيطرة
كما كانت يوما ، وهى يقلقها ويضنيها كل
شهر كيف تسدد حساباتها المنزلية كم تعذبنى
هذه الفكرة

« ونستون تشرشل »

كانت السيطرة على العراق هدفا رئيسيا للاستعمار البريطانى منذ نفذ هذا الاستعمار الى الشرق واستطاع أن يستولى استيلاء تاما ومباشرا على الهند ، وأن يسيطر سيطرة واسعة وغير مباشرة على الصين .

وقد جعلت بريطانيا نصب عينيها الاستيلاء على كل الطرق البرية والبحرية المؤدية الى الهند والسيطرة الفعلية سواء بطريق أو بآخر على كل الدول الواقعة على هذه الطرق ، وكان من أهمها مصر التى تملك مفاتيح الطرق البحرية والعراق التى تملك مفاتيح الطرق البرية .

وقد اعتبر العراق أهم المحطات البرية الواقعة على طريق الهند والمؤدية اليها والحامية لها لعدة أسباب رئيسية وهى :

١ ــ كان العراق هو خير قاعدة لمناوأة النفوذ الاستعمارى الروسى القيصرى فى آسيا ، وقد أخذ القياصرة الروس منذ بطرس الاكبر يتطلعون الى آسيا ، ويحسدون بريطانيا على سيطرتها عليها ، ويحلمون باقامة امبراطورية شرقية فى آسيا ، بل وبالاستيلاء على ايران وأفغانستان والنفاذ منهما الى الهند لطرد الانجليز من هناك ، وقد كان الصراع الاستعمارى فى آسيا طوال القرن التاسع عشر هو فى معظمه معركة بين بريطانيا وروسيا القيصرية أهم ميادينها ايران التى تسلل اليها الروس واستطاعوا ان يبسطوا نفوذهم على شمالها ، وأفغانستان التى لم تنقطع محاولاتهم لاستمالتها أو السيطرة عليها .

وقد تطلعت بريطانيا الى الاستيلاء على العراق لصد محاولات الروس فى النفاذ الى مياه الخليج الفارسى والمحيط الهندى والى موازنة نفوذهم فى ايران .. « وحتى لاتصبح الكويت ابدا ميناء

روسيا كما يريد الروس أو ميناء ألمانيا كما يريد الألمان » .

٢ ــ كان العراق أيضا هو خير قاعدة لمناوأة النفوذ الاستعمارى الألمانى الذى ازدهر بسرعة فائقة ومضطردة فى أوائل القرن العشرين والذى جعل شعاره « الزحف نحو الشرق » ، واذا كانت المعركة الاستعمارية فى آسيا خلال القرن التاسع عشر هى معركة بريطانيا وروسيا القيصرية الا أنها فى القرن العشرين أصبحت معركة بين بريطانيا وألمانيا .

ونتيجة لهذه المعركة عقدت بريطانيا اتفاقا وديا بينها وبين فرنسا سنة ١٩٠٤ لاقتسام النفوذ بينهما فى شمال أفريقيا ، باطلاق نفوذ بريطانيا فى مصر ، وفرنسا فى مراكش وتونس والجزائر ، وعقدت بريطانيا اتفاقا وديا مماثلا بينها وبين روسيا القيصرية سنة ١٩٠٧ ، اقتسما بمقتضاه النفوذ فى ايران وأصبح شمال ايران منطقة نفوذ روسية وجنوب ايران منطقة نفوذ بريطانية

وتفرغت بريطانيا بعد ذلك لمحاربة التسلل الاستعمارى الالمانى الذى جعــل همه الاستيلاء غير المباشر على الامبراطورية العثمانية وولاياتها العربية . وقد استغل الاستعمار الألمانى كراهية الدولة العثمانية للدول الاستعمارية الثلاث الأخرى ، وحاجتها الى حليف ضد مغامراتهم ومؤامراتهم وانقضاضهم هنا وهناك على أملاك الدولة ، واستطاع أن يوطد نفوذه فى بلاط السلطان وبين الدوائر السياسية والعسكرية

واستطاع الاستعماريون الألمان أن يحصلوا على أخطر امتيــاز منح للأجانب فى الدولة العثمانية وهو امتياز خط سكة حــديد اسطنبول ــ بغداد الذى كان مقررا أن يمتد حتى البصرة فى الخليج الفارسى ، وقد أدركت بريطانيا مغزى هذا الخطر الذى سوف يشق الامبراطورية كلها والذى سوف يضع عمودها الفقرى فى أيدى الألمان ، وعبأت بريطانيا كل قواها لمحاربته وعرقلته او انتزاعه من أيدى الألمان . . ووجدت أن خير طريق لهذا هو بسط نفوذها على

العراق ووضع الألغام أمام الألمان هناك

٣ ــ كان العراق هو خير قاعدة لتدعيم النفوذ البريطانى فى منطقة الخليج الفارسى . وقد كان الاستيلاء على هـذا الخليج والامارات العربية الواقعة على شواطئه هدفا رئيسيا للاستعماريين البريطانيين منذ القرن السابع عشر أى بدء نفاذهم الى الهند ، وكان شعارهم دائما هو جعل الخليج الفارسى بحيرة بريطانية وذلك لأن الخليج يحمى حماية رئيسية الطريق البحرى الى الهند ، ويحمى بترول ايران ، ويحمى التسلل الى البلاد العربية

٤ ــ كان العراق خير قاعدة تتسلل منها الادارة البريطانية فى الهند لتحقيق حلمها الكبير وهو استخلاص الولايات العـربية فى الامبراطورية العثمانية ، واقامة امبراطورية عربية بربطانية تكملة للامبراطورية المباشرة فى الهند والامبراطورية غير المباشرة فى الصين، لتكون حلقة رئيسية مكملة ومدعمة للسيطرة البريطانية على آسيا ، ولتكون درعا يسـيطر على كل المنافذ البرية والبحرية لآسـيا وأفريقيا .

وقد بدأت الادارة البريطانية فى الهند العمل جديا لأجل تحقيق هذا الحلم منذ أوائل القرن التاسع عشر وبدأت بتوطيد سيطرتهـا على أمارات الخليج الفارسى ثم مدت هذا النفوذ الى امارات وأمراء شبه الجزيرة العربية ثم استولت على عدن ثم بدأت فى النفاذ الى العراق ، باقامة القنصليات والمحطات التجارية فى البصرة وبغداد

٥ ــ كان العراق معروفا بأنه مخزن غنى للثروات المعدنيـة والزراعية المهملة ، وكانت كل تقارير قناصل بريطانيا وجواسيسها تشير الى هذه الثروات التى لايعنى بها أحد فى ظل الحكم التركى المظلم ، وكيف تستطيع بريطانيا استغلالها لتدعيم ثروة بريطانيـا والامبراطورية ، وكان من المعروف ان شمال العراق غنى بأهم مادة استراتيجية ومدنية فى العصر الحديث وهى البترول ، وقد بدأ الصراع من أجل بترول شمال العراق منذ أوائل هذا القرن بين

بريطانيا وفرنسا والمانيا وحتى امريكا التى جاء مبعوثوها ليدلوا بدلوهم فى معركة غنائم الامبراطورية العثمانية .

٦ ـ كان العراق خير قاعدة لحماية بترول ايران الذى سيطرت عليه بريطانيا منذ اكتشافه فى أوائل القرن ، وهو بترول كان يعتمد عليه الاسطول البريطانى بل وكما قال كيرزون فيما بعد « طفا عليه الحلفاء الى النصر » ، وكان بترول العراق المدفون هو خير مكمل للسطيرة البترولية على الشرق الأوسط وهى هدف أولى ورئيسى وجوهرى للاستعماريين البريطانيين

الحــــــرب

وحينما أعلنت الحرب العالمية الأولى وكان من أهم أسبابها ، بل سببها فى رأى كثير من المؤرخين ، هو الشرق الأوسط والنزاع على تركة الرجل المريض وخاصة سكة حديد اسطنبول ـ بغداد ، كان من أول مافكرت فيه بريطانيا وقامت بتنفيذه على الفور ارسال حملة عسكرية لاحتلال العراق والزحف الى بغداد

وكان هدف هذه الحملة هو « تأكيد هيبة بريطانيا فى الشرق الأوسط وخاصة فى ايران وافغانستان وضمان معونة العرب ضد الأتراك والحيلولة دون انضمامهم الى « الجهاد » الذى أعلنته الدولة العثمانية ، والذى أثرت دعوته فى مسلمى الهند ، واحباط مؤامرات الألمان فى ايران وفى أفغانستان » وذلك كما صرحت حكومة الهند البريطانية فى ذلك الحين » وقد قامت هذه الحكومة باعداد الحملة وتجهيزها وكان عمادها هو القوات الهندية ، كما حددت كل خططها السياسية والعسكرية .

وحينما انتهت الحرب العالمية الأولى كانت بريطانيا قد حققت حلمها بالاستيلاء على العراق » ولكنه كان استيلاء غاليا ، اذ كانت معارك العراق من أشق معارك الحرب العالمية الأولى ، وذلك لمقاومة الاتراك الباسلة ولعدم ثقة العراقيين ثقة كبيرة ببريطانيا وبالوعود

التى بذلتها وعدم تعاونهم نتيجة لهذا تعاونا كاملا معهم . على أن أشق المعارك كانت لاتزال فى بطن التاريخ .

حـكم العـــراق

وحينما انتهت الحرب كانت الادارة الامبراطورية فى الهند قـد أعدت بسرعة المشاريع الجاهزة لحكم العراق وفق ما تهوى .

« وكان القرار الأول الذى يجب أن يتخذ فى حكم العراق هو هل تسيطر بريطانيا العظمى عليه سيطرة مباشرة أو تحكمه بطـريق غير مباشر وذلك عن طريق تأسيس نوع من الحكم الوطنى يتكفل بضمان المصالح الامبراطورية الرئيسية »

وقد اختارت حكومة الهند البريطانية السيطرة المباشرة الكاملة طبعا، وقد كانت تريد « تطبيق القواعد والاساليب التى اتبعها اللورد كرومر فى حكم مصر بعد أن تدخل عليها التعديلات المناسبة » .

واللورد كرومر تعلم فن الحكم فى الهند .

وكانت ترى أيضا « ان احتــلال العراق هو الأوج الذى بلغــه التوسع الاستعمارى البريطانى فى الشرق الأوسط طوال ثلاثة قرون، وأنه باحتلال العراق قد ضمنت سلامة الطريق الاحتياطى الىالهند الذى تعتبر بغداد من أهم مراكزه ، وضمنت حماية الهند والشرق الأوسط من روسيا البلشفية التى تعاظم خطرها الآن أكثر من أى وقت مضى بالنظر لأن اطماعها باتت تغذيها مبادىء غــدارة ، كما ضمنت المصالح التجارية وعلى راسها البترول فى إيران وفى منطقة كركوك » وذلك كما جاء فى المذكرات البريطانية المتبادلة .

ولم يستطع الاستعماريون البريطانيون تحقيق خططهم على الفور وواجهتهم عقبتان رئيسيتان

١ ــ ان عرب العراق نظروا بنفور شديد لهذه السياسة

٢ ــ أن السياسة البريطانية فى حكم المناطق العــــربية التى

استخلصت من الدولة العثمانية انقسمت الى مدرستين ، المدرسة الهندية كما سميت نسبة الى حكومة الهند البريطانية ، والمدرسة الشريفية نسبة الى الشريف حسين شريف مكة ، ولما كانت هاتين المدرستين قد اثرتا فى الثورة العربية وفى حياة العرب معا، فلابد من الوقوف عندهما بعض الوقت .

المدرسة الهندية

كانت هذه المدرسة تعتقد أن كل مايتعلق بالعرب يجب أن يكون من اختصاصها وأن اى سياسة نحو العرب لابد وأن يضعها الموظفون البريطانيون فى حكومة الهند لأنهم هم الذين بدأوا هذه السياسة وبدأوا التوسع فى البلاد العربية منذ ثلاث «قرون» ، وكان من رأيهم أن البلاد العربية التى احتلتها الجيوش الانجليزية لابد لها من احد أمرين : اما أن تلحق بحكومة الهند فعليا أو أن تبقى ادارتها تابعة لها .

وكان رجال هذه المدرسة « لايحملون أى عطف على ماسمى بالقومية العربية بل ويسخرون منها ويعتقدون أن العرب جنس لاقدرة له على تدبير شئون نفسه وأن العربى العادى وكل العرب ماعدا حفنة من السياسيين المتحذلقين فى بغداد لايرون لهم أى مستقبل الا فى حماية بريطانيا، وأنه وان يكن العربى قابلا للتدريب بأسرع من قابلية الهندى، الا أنه لازال أمامه طريق طويل من التعليم والخبرة، وان ليس هناك فى العراق من يريد أو من يتوقع خطط وأوهام الاستقلال الجارفة التى يتحدث البعض عنها ... وأما القومية العربية فقد كانت فى رأى هذه المدرسة خطرا يجب أن يحصر نطاقه ويقضى عليه مهما كان الأمر »

وحينما قامت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين شريف مكة وأولاده سنة ١٩١٦ ثار رجال هذه المدرسة وصرح نائب الملك فى الهند « ان هذه الثورة مفاجأة غير سارة وأن فشلها أخف ضررا

علينا من نجاحها ، وهى ذات أثر سيء علينا فى ايران وافغانستان وبين مسلمى الهند ، وسيعدها هؤلاء دسيسة مسيحية منا ضـــد دينهم »

وكان هذا نفاقا طبعا لأن هذه المدرسة كانت تعتمد اعتمادا كبيرا فى استراتيجينها وسياستها على « افساد العرب على اخوانهم فى الدين من الترك واستمالتهم الى جانب الانكليز » وكانت تعتمد فى تنفيذ سياستها على امراء الخليج وعلى ابن سعود .

وهى قد رأت فى الثورة العربية قلبا لخططها ومناوأة لنفـــوذ صنائعها وعملائها .

وما أن انتهت الحرب حتى سارعت هذه المدرسة لتطبيق سياستها والقضاء على المدرسة الشريفية أو على الأقل استخلاص العراق من براثن هذه المدرسة ، وقد كتب المعتمد السياسى البريطانى ويلسن الذى وكل اليه أمر حكم العراق بعد الحرب مذكرة بشأن خططه كاملة جاء فيها

« ليس هناك ادنى علاقة بين العراق وبين سائر البلاد العربية ، واذا أريد معالجة قضية العراق ومستقبل العراق معالجة ناجحة ، فلابد من معاملتها معاملة منفصلة عن القضايا العربية الأخرى .

«وان عرب العراق لا يحتملون أن يتدخل العرب الاجانب فى شئونهم مطلقا » سواء كان هؤلاء من سوريا أو الحجاز ، وهم عمليا يكرهون هؤلاء العرب ولا يأتمنوهم . والوحدة القومية عند العراقيين معناها وحدة العراق وليست أبدا الوحدة مع سوريا أو مع الحجاز

« وفى استطاعتى أن أصرح بكل ثقة » ويؤيدنى كل مساعدى من المستشارين السياسيين ، أن هذه البلاد لاترغب ولا تتوقع الاستقلال » .

وحينما وجد أراءه هذه موضع بحث وشك استغنى عن التلميح بالتصريح ووضع الأمور والحقائق عارية وكتب يقول :

« ان أهم المناطق الاستراتيجية فى الشرق الأوسط هى فى نظرى

العراق والقوقاز . وفى كلاهما تسود الأغلبية المسلمة بين السكان ، واذا شجعنا فكرة القومية العربية كبديل للســـيادة والسيطرة الأوروبية المباشرة على الولايات العــربية التى انتزعت من الأتراك بالدماء البريطانية والمال البريطانى ، فاننا سوف نثير الأحقاد الكامنة بين السنة والشيعة فى العراق «!!!» وبذلك سنحرم أنفسنا من المزايا الاستراتيجية التى حصلنا عليها بالاستيلاء على « مركز الأعصاب » الهام هذا . ونحن قد تمكنا باحتلال العراق من أن ندق اسفينا فى العالم الاسلامى ، وبذلك منعنا دون تجمع المسلمين ضدنا فى الشرق الأوسط « !! » ولابد وأن تقوم سياستنا على أن نجعل العــراق دائما كاسفين ضد العالم العربى والاسلامى ، ولذا يجب ان لاتندمج سياسيا بسائر بلاد العالم العربى أو العالم الاسلامى وتبقى منعزلة بقدر المستطاع وتصبح مثلا للبلاد الأخرى .

« وانه من المستحيل أن تقوم حكومة عربية حقيقية فى العراق ، واذا حاولنا ذلك فانه يعنى أن نترك الشرق الأوسط طعمة للفوضى . ونحن نستطيع أن نفسر التصريحات والوعود التى أعطيت تفسيرا جديدا جريئا يمكننا من جعل العراق الحجر الاساسى لسياستنا فى الشرق الأوسط . ونحن اذا تمسكنا ببغداد بقوة واحتفظنا بذخيرة كافية من المواد الحربية ووسائل النقل هناك ، فاننا سنسيطر على الشرق الأوســط بالمعنى العسكرى ، وســيكون نفوذنا السياسى متناسبا مع قوتنا العسكرية الكامنة . وبوسع بريطانيا العظمى ، كوكيلة عن الأمم المتمدنة فى العالم ، أن تضمن السلم فى الشرق الأوسط . وبريطانيا العظمى هى الدولة الوحيدة التى ستقبلها وترضى بها شعوب الشرق الأوسط للقيام بهذه المهمة » وهذه الشعوب لاتزال ترى فى السياسة البريطانية ذلك التسامح والاثرة التى لايمكن أن تجدها فى أى من سياسات الدول الأخرى

« وأخيرا فان قيمة حقول البترول فى العراق تبلغ مايقرب من خمسين مليون جنيه وهناك موارد للثروة الكامنة كالموانى والبواخر والسكك الحديدية والطرق والمنشئات التى أقيمت برأسمال بريطانى

خاص أو عام بقدر بعشرة ملايين جنيه ، وهناك البضاعة البريطانية المستوردة هذا العام وتقدر بعشرة ملايين جنيه رغم أن النشاط التجارى لم يعد الى تمام قوته ...

«وكيف يمكن بغير حكومة ثابتة، بريطانية لحما ودما، أن يضمن بقاء هذه الموجودات »

وانتهى المعتمد السياسى البريطانى الى أنه « يجب أن تبدد تماما كل الآمال السياسية والرغبة فى الحكم الذاتى لأن هذه أوهام تجول فى مخيلة المتطرفين غير المعترفين بالجميل ، أو أن تقمع بشدة كما تقمع كل الأفكار الشريرة التى تجول بخيال الصبى المراهق »

وكان لابد من ايراد آراء السيد « ويلسن » لأنها هي التى حكمت السياسية الاستعمارية البريطانية فى العراق وان كان بأسلوب آخر غير أسلوبه !!

المدرسة الشريفية

ولم تكن هذه المدرسة تختلف عن المدرسة السابقة فى الغاية وانما كانت تختلف فى الوسيلة فقط ، وكان عميد هذه المدرسة هو الجاسوس البريطانى الشهير لورنس الذى كان من رأيه « ان المصالح البريطانية يمكن أن تضمن وتؤمن بأقل ثمن ، عن طريق العرب الأصدقاء الذين تدعمهم بريطانيا بتأييدها وتوليهم حكم بلادهم حكما مباشراً بأنفسهم » .

وقد كانت المدرسة الشريفية مكونة من رجال المكتب العربى البريطانى فى القاهرة ، وهو هيئة الجواسيس والعملاء الذين وكل اليهم أمر التعاون مع الثورة العربية التى بدأت فى الحجاز بقيادة الشريف حسين وأولاده ، والذين أخذوا على عاتقهم مهمة حصر وتحديد هذه الثورة لتكون دائما مجرد أداة استراتيجية فى خدمة الأهداف البريطانية وحتى لاتتحول الى ثورة وطنية كاملة .

وقد كان رأى لورنس أن الحكم المباشر لن يجدى، وأنه بدلا من الحكم المباشر « يحكم العرب الاصدقاء من دمشق وبذلك يقفون فى وجه التوسع الفرنسى الذى يتطلع الى الهند ويسهلون حماية قناة السويس والطريق البرى الى الهند ، والأسرة الهاشمية هى طبعا أليق أداة يمكن أن توفق بين استقلال العرب وبين بسط النفوذ البريطانى الكافى على البلاد العربية »

وقد وضع لورنس مشروعا لحكم البلاد العربية يقضى بأن «تقسم العراق الى قسمين : العراق الشمالية وتوضع تحت حكم الامير زيد بن الحسين ، والعراق الجنوبية وتوضع تحت حكم الأمير عبد الله بن الحسين ، وسوريا وتوضع تحت حكم فيصل بن الحسين ، على أن يظل الحسين نفسه ملكا على الحجاز حتى يخلفه فى النهاية ابنه الأكبر على . ولا تكون للحسين أى سلطة دنيوية على الحكومات الثلاث المذكورة ، ولا يكون له فيها نفوذ سوى الدعاء باسمه فى صلاة الجمعة كأمير المؤمنين ، وأن يكون مفهوما بالطبع أن حكومتى سوريا والحجاز والعراق الشمالى ستكون داخلة ضمن النفوذ البريطانى ، وحكومة العراق الجنوبى « ستكون خاضعة للسيطرة البريطانية الفعالة »

وقد كان رجال المدرسة الشريفية أقدر وأذكى واكثر خبرة ودهاء من رجال المدرسة الهندية « الغلاظ الأجلاف » ، وكانوا أيضا ذوى نفوذ أكثر فى وزارة الخارجية البريطانية ، وكانوا ذوى طموح أيضا فى احتلال مراكز رئيسية فى حكومات البلاد العربية .

وكانت المدرسة الشريفية أقدر كواجهة نفاق على التوفيق بين الوعود والتصريحات والبيانات التى صدرت بسخاء خلال الحرب والتى وعدت العرب بكل شيء تحت الشمس، وبين الأهداف والمصالح الاستعمارية الحقيقية فى الشرق العربى

ولذلك كانت المعركة والشد والجذب بين المدرستين حول حكم العرب عامة والعراق خاصة شديدا ، ولكنه انتهى بانتصار المدرسة

الهندية بعد تعديلات طفيفة والاتفاق على قيام حكومة ذات واجهة عربية محمية بأكثر مايمكن من الحماية البريطانية وبأقل ما يمكن من القومية العربية .

ولم يستغرق هذا طويلا ليؤدى الى انفجارالعراق انفجارا شاملا رهيبا فى ثورة سنة ١٩٢٠ .

ثورة سنة ١٩٢٠ :

كانت ثورة سنة ١٩٢٠ هى الرد السريع ، العنيف ، المباشر على حكم المدرسة الهندية للعراق ، وعلى الزحف البريطانى للسيطرة الكاملة على سياسة واقتصاد واستراتيجية العراق ، وهو أمر أثار كل الطبقات من الفلاحين الى المثقفين الى العسكريين الى مشايخ العشائرودفعهم الى حمل السلاح ضد الاستعمار مهما كان الثمن. ولكن ثورة العراق لم تكن حدثا محليا فقط ولم تكن نتيجة لظروف العراق وحدها ، وانما كانت فصلا من سلسلة الثورات والانفجارات التى عمت العالم العربى بعد الحرب ، والتى كانت ايضا ردا سريعا وعنيفا ومنطقيا على خيانة الثورة العربية وعلى التغرير بالعرب وعلى نقض الوعود التى بذلت لهم ، وهى كانت شيئا بسيطا الى جوار تضحياتهم ومساعداتهم الحاسمة .

ولقد أعلن الجنرال مود لدى دخوله بغداد منتصرا « اننا جئنا محررين لا غزاة » وأصدرت الحكومتان الفرنسية والبريطانية بعد انتهاء الحرب بيانا مشهورا قالتا فيه « ان الهدف الذى ترمى اليه بريطانيا وفرنسا من تحرير البلاد التى رزحت طويلا تحت الحكم التركى هو تحريرها تحريرا نهائيا كاملا » هذا الى ما جاء فى الرسائل المتبادلة بين مكماهون المعتمد البريطانى فى القاهرة وبين الشريف حسين شريف مكة ، والى ماجاء فى بيانات ويلسن ، ونقطه الأربعة عشر التى تدور حول حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، والتى أثرت تأثيرا كبيرا فى الوطنيين العرب

وقد انتهت هذه الوعود الى اقتسام الشرق العربى فى معاهدة سان ريمو سنة ١٩٢٠ بين فرنسا وبريطانيا ، وتحقيقا لاتفاقات وقعت بينهما خلال الحرب وفى نفس الوقت الذى كانوا يمنحون فيه وعودهم للعرب . وبمقتضى معاهدة سان ريمو ابتدع نظام الانتداب، وقسم الشرق العربى الى منطقتى انتداب . احداهما فرنسية وتضم سوريا ولبنان والاخرى بريطانية تضم العراق وفلسطين. ولم يخف على العرب ، وخاصة على العراقيين « مايقصد بكلمة انتداب ، ولم يفتهم مايعنى البريطانيون والفرنسيون بها ، وانها « مجرد تجاهل للذكاء العربى وللروح الوطنية العربية ومهما كانت الكلمة العربية التى استعملت الا ان الوطنيين العراقيين لا ينظرون الى نظام الانتداب الا على أنه عبارة عن استعمار بثوب جديد وتوسع استعمارى باسم جديد » كماكتبت صحيفة عراقية فى ذلك الحين . وعبر العراقيون تعبيرا صريحا عن رأيهم فيما كتبت صحيفة الاستقلال الوطنية العراقية لسان حالهم فى ذلك الحين « سمعنا وسمع العالم بالتعبيرات والكلمات التى ولدتها سياسة الاستعمار لبسط نفوذهم على البلاد الضعيفة ككلمة انتداب .ووصاية وحماية واعتماد ومساعدة ومحالفة واشراف ومشارفة أو ما جاء على شاكلتها ، والقصد من تكثير هذه الكلمات هو التمويه على الامم الضعيفة التى يعتقدون فيها كل جهل وغباوة، فاذا أحسوا بانزعاج الامة من كلمة الحماية نظرا لوقعها السىء على النفوس قالوا اننا لا نريد الحماية بل نريد ان نكون عليكم أوصياء نهديكم ونرقيكم حتى تبلغوا رشدكم كما هى الحالة فى اليتيم القاصر. واذا رأوا هذه الاحبولة لم تجد نفعا ، قالوا انما نريد الاشراف لئلا تختل أموركم ، واذا لم يجدوا لهذه الكلمة قبولا قالوا نكتفى بمد يد المساعدة نظرا لاحتياجكم الى الاستمداد من دولة قوية تمدكم بالمال والرجال »

ولم يخدع العراقيين مطلقا خلع رداء عصبة الأمم على الانتداب والادعاء بأنه مسئولية تضعها عصبة الأمم أمانة على عاتق الدول العظمى ، فأعلنوا فى صحفهم الوطنية « أن العراقيين يأبون أن تقيد

حريتهم يد أجنبية تحت أى اسم كان ، وان العراق العربى لايعرف لعصبة الأمم هذه السلطة التى تخولها أن تصدر احكامها على الأمم والشعوب بدون أن تستند على حق قانونى سوى قوى الدول الضخمة التىتأتمر العصبة بها،ومنالغريب أن هذهالعصبة الخاضعة لمؤثرات الدول الاستعمارية لم تتفضل بنظام الانتداب هذا على غير سورية والعراق والمستعمرات الألمانية ولماذا لاتمنحه لأرمينيا مثلا»

وكان مايريده العراقيون وما لا يطالبون بأقل منه هو ما صرح به، فى نوبة من نوبات الصراحة وأزمات الضمير ، الجاسوس الاستعمارى فيلبى الذى اشترك فى كل أحداث العراق والذى قال فى خطاب ألقاه سنة ١٩٢٠ فى الجمعية الاسيوية بلندن

« ان مايريده العراقيون مثلهم فى هذا مثل كل سكان الجزيرة العربية وسورية، وبصفتهم جميعا عرب هو الاستقلال التام لا أكثر ولا أقل ، وهذا ما وعدتهم به بالذات الحكومة البريطانية بأوضح العبارات عندما اشتركت مع فرنسا فى تصريحها المشهور فى نوفمبر سنة ١٩١٨ . ولعله من الخير أن ندرك انه بجانب الشعور الجارف الذى يختلج فى نفوس معظم العرب بشأن عدة امور مثل الدين والسياسة ، هناك اجماع أتم على حب الحرية حبا عنيفا يتميز به العرب فى سوريا وفى العراق وفى كل مكان » .

وقد أطاحت ثورة سنة ١٩٢٠ بكل ما بناه وما حلم به الاستعماريون البريطانيون منذ دخولهم العراق اول الحرب ، بل وتداعتأحلام الثلاثةالقرونمن أوجالتوسع الاستعمارى،وكانهدف الثورة من الشدة والقوة بحيث انهارت المقاومة البريطانية فىمعظم ارجاء العراق ، واستدعت الادارة الاستعمارية جيوشا كاملة من الهند ، لانقاذ الموقف ، واستمرت المقاومة فى عنف وشدة رغم حرج موقف الثوار ، ورغم اسلحتهم الضئيلة ومواردهم المحدودة، ورغم انقطاعهم عن العالم ، ولم تستطع بريطانيا اخماد الثورة الا بعد أن استدعت خمسين الف جندى وانفقت ٤٠ مليون جنيه وهى

كما يقول المؤرخ البريطانى لونجريج « اكسر بكثير من كل ما صرفته بريطانيا على الثورة العربية كلها » .

وكانت الثورة الوطنية فى نظر الشعب « حربأوطنية من أجل الاستقلال ، وقد اعتبر الشعب الرجال الذين قادوا الثورة والذين لعبوا دورا مهما فيها ابطالا وطنيين واعتبر الذبن فقدوا حياتهم فيها شهداء » .

وكانت نتائجها فى الداخل والخارج وعلى العراق والعالم العربى هامة « وبرغم ان سياسة حكومة صاحب الجلالة البريطانية لم تتبدل سوى فى اساليب تطبيقها وليس فى جوهرها نتيجة لنشوب الثورة ، فان الثورة اثرت تأثيرا لا يستهان به على سكان العراق أنفسهم ، وهى برغم نشوبها المفاجىء ودوافعها المتعددة برهنت للعراقيين على قوة العمل الموحد المتناسق الذى بوسعه ان يتحدى حتى قوات الحكومة البريطانية . وكذلك اماطت الثورة اللثام فى الوقت نفسه عن نقاط الضعف والانقسامات الاساسية ما بين الساسة ، وقد اظهرت الثورة عددا من القادة الذين قدر لهم بعد ذلك أن يضطلعوا باعباء مسئوليات متزايدة الأهمية ، اما بالتعاون مع الحكومة البريطانية وتطبيق سياستها فى التحرر التدريجى أو فى المعارضة فى ضمن الجماعة الوطنية التى كانت تطالب بالاستقلال التام الناجز » وذلك كما يقول المؤرخ الامريكى ايرلاند .

التغيير

وقد كانت ثورات العالم العربى ضد بريطانيا ، وخاصة ثورة العراق ، دافعا لتغيير الاستراتيجية البريطانية فى الشرق العربى ، بالرجوع للمدرسة الشريفية فى حكم العالم العربى وتفضيلها على المدرسة الهندية . وتحقيقا لهذا عقد مؤتمر فى القاهرة برئاسة تشرشل وزير المستعمرات » ومستشاره لورنس زعيم المدرسة الشريفية ، وتقررت العودة الى آراء هذه المدرسة وهى تقوم على

« اقامة حكومات عربية ذات رأس مقنع تحت الاشراف البريطانى القوى غير المنازع ، لانه ليس فى وسع أى واجهة ان تظهر للوجود وقد اختفى وراءها الاشراف البريطانى المباشر ليعمل عمله دون الالتجاء الى القوة الملحة، مالم يكن فوقها رأس مقنع ذوسلطة تنفيذية، ويؤازره الشعب بصورة ظاهرية . وان جميع المفاوضات والاتفاقات التى لا يدعمها الرأى العام والتى لا يوجد وراءها « مقاول » يتولى تنفيذ المقاولة سرعان ما تتداعى » .

وكانت أفضل الرؤوس المقنعة فى رأى لورنس هى رؤوس الاسرة الهاشمية ، ولهذا قرر مؤتمر القاهرة ضمن ما قرر اقامة حكومة ذات واجهة عربية فى العراق وبرأس مقنع هو رأس الامير فيصل ابن الحسين .

وكان تشرشل يعتقد ان « تنصيب فيصل ملكا على عرش العراق سيزيد من نفوذ الحكومة البريطانية عليه وعلى أبيه شريف مكة الذى كان لا زال ساخطا ومشاكسا فى علاقاته مع بريطانيا العظمى، وان فيصل يجب أن يدرك أن المنحة التى أعطيت اليه، وان الضمانات البريطانية التى اعطيت لوالده الشريف حسين بمناسبة اعتداء الوهابيين عليه ، تتوقف كلها على سلوك فيصل نفسه » .

وكان فيصل عند حسن ظن تشرشل تماما ، وكما يقول كاتب عربى « اعان الملك فيصل الحكومة البريطانية على الاحتفاظ بكل مصالحها فى العراق مقابل التنازل عن مظاهر الاستعمار الخارجية التى تثير الشعب وتدفعه الى النضال المستمر والمطالبة الدائمة بالاستقلال التام . وفى الداخل هدأ هذا الملك ثورات العشائر بأن استمال الشيوخ الى الوضع القائم عن طريق اقطاعهم الاراضى الخصبة وتثبيت حقوقهم فيها ، وكانت القوانين التى صدرت فى عهد فيصل هى التى نبتت الاقطاع وجعلته نظاما قانونيا » .

وفى عهده أصبح البريطانيون كما قال أحد رجالهم يعتمدون فى حكم العراق على ملك واحد والف شيخ .

. وحكم الملك فيصل ـ برأسه المقنعة ـ العراق حكما هادئا نسبيا حتى مات عام ١٩٣٥ ، وادى موته الى اظهار كل المتناقضات التى كان يخفيها حكم الواجهات العربية الذى كان سائدا . واستغرق العراق بعده فى سلسلة من الانقلابات العسكرية والثورات والازمات السياسية الحادة بلغت أوجها فى ثورة السيد رشيد عالى الكيلانى سنة ١٩٤١ . وهى ثورة كان سببها الرئيسى مؤامرة بريطانيا للزج بالعراق فى الحرب ، ودفعه الى جر كل البلاد العربية بل كل البلاد الاسلامية الى الحرب الى جوار بريطانيا معتمدين فى هذا على رجلهم الاول فى العراق نورى السعيد .

وكما كتب المؤرخ البريطانى لونجريج عن أحداث سنة ١٩٤١ « كانت فكرة نورى باشا اكثر من مجرد الوفاء بالتزامات المعاهدة البريطانية . وهو كان يرمى الى تعديل ميثاق سعد اباد تعديلا يؤدى الى اشتراك الدول الموقعة عليها اشتراكا جماعيا فى الحرب والسير مع الحلفاء ، ومحاولة جر مصر الى هذه السياسة » .

وقد انتهزت بريطانيا فرصة ثورة سنة ١٩٤١ لتقوم بتصفية وحشية لكل العناصر الوطنية والثورية فى العراق . ولكن لم يكن لها من النتائج أكثر من نتائج تصفية ثورة ١٩٢٠ .

وكان هذا نهاية المرحلة التى بدأت باحتلال البصرة سنة ١٩١٤ . وبعد الحرب العالمية الثانية دخل العالم كله فى عصر جديد وتعدلت الاستراتيجية السياسية البريطانية تعديلا جوهريا .

استراتيجية ما بعد الحرب

١ ـ تغيرت خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها سياسة بريطانيا أزاء العراق ولم تعد تدعو الى عزله عن العالم العربى والعالم الاسلامى أو ابقاءه كاسفين فيها ، واصبحت هذه السياسة تقوم على جعل العراق « هو محور المصالح البريطانية وقاعدتها الرئيسية فى الشرق العربى والاسلامى » وتحقيق ما اراده نورى السعيد خلال الحرب بصورة أخرى .

وأرادت بريطانيا ان تجعل العراق قاعدة لتكتل عربى يأخذ صورة «جامعةعربية» بقيادة العراق ، وقاعدة لتكتل اسلامى يأخذ صورة «جامعةاسلامية» بقيادة العراق أيضا ويكون هدفهما حماية المصالح البريطانية فى الشرق العربى والشرق الاسلامى التىاصبحت مهددة تهديدا مباشرا وجوهريا بالنفوذالامريكى والنفوذ السوفيتى.

وقد وضع السيد نورى السعيد سنة ١٩٤٣ مشروعه المشهور الذى ضمنه الكتاب الازرق وكان يقضى بقيام « جامعة عربية بدون مصر » وتكتيل دول الهلال الخصيب وهى سوريا ولبنان والاردن والعراق وفلسطين مع منح اليهود استقلالا ذاتيا فى داخل هذه الجامعة .

وكان هدف هذا المشروع أولا عزل مصر عن العرب لأن بريطانيا كانت تخشى مصر ، وتخشى الدور الذى تستطيع ان تلعبه ضد مصالحها فى عالم مابعد الحرب، ومنحاليهود استقلالا ذاتيا ، وذلك حتى لا ينحازوا الى أمريكا وحتى لا تستخدمهم أمريكا كاداةللتسلل الى الشرق العربى .

وما لبثهذا المشروع ان اتضحت استحالتهوانه ليس من الممكن اقامة جامعة عربية بغير مصر أو جامعة عربية تضم الصهيونيين . فتعدلت الاستراتيجيةالبريطانية مرةاخرى، وتقرراقامة جامعةعربية تقودها مصر والعراق ، ويكون التنافس بينهما على زعامتها خير ضمان لبقاء الجامعة فى نطاق الاستراتيجية البريطانية ، وتكون قوتها متضامنة خير حاجز يصد الصهيونيين عملاء الامريكيين أو يحد نفوذهم .

٢ ــ وارادت بريطانيا تعزيزا للجامعة العربية وتدعيما للنفوذ البريطانى جعل العراق قاعدة لتكتل اسلامى من دول ميثاق سعد اباد القديمة مضافا اليها الدولة الاسلامية الجديدة التى لعب الاستعمار البريطانى فى خلقها دورا رئيسيا وهى باكستان .

وقد وضع رجال حكومة الهند البريطانية الذين أدت مناوراتهم ومؤامراتهم الى تقسيم الهند والذين فقدوا مناصبهم وجاههم

العظيم بعد الجلاءعن الهند، مشروعايقضي باقامة تكتل اسلامي يمتد من باكستان حتى العراق ويضم أيضا محميات الخليج الفارسي .

وقد كان هدفهم من هذا التكتل هو خلق قوة اسلامية كبرى موازنة ومهددة للهند الهندوكية التي كافحت حتى طردت الانجليز والتي كانت تعتبر غير مضمونة مطلقا بعد جلاء الحكم البريطاني ، بل والتي اعلنت أيضا أنها ستتبع سياسة محايدة فيما يتعلق بالصراع الدولي الرهيب الذي نشب بين الكتلتين الشرقية والغربية بعد الحرب .

وقد رأى هؤلاء أن قيام كتلة اسلامية كبيرة متكاملة مع الجامعة العربية ومتحالفة مع الغرب وفي كنفه ، ستعوض بريطانيا مافقدته في الهند وفي آسيا ، وستؤمن لبريطانيا سيطرتها على الطرق البرية والبحرية والجوية المؤدية لها ، وستكون قاعدة كبرى لبريطانيا في الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي ، وستؤمن كل المصالح الاقتصادية وخاصة البتروليةلبريطانيا في الشرقالعربي والاسلامي، وستصد النفوذ الامريكي أو على الاقل ستضع بريطانيا في مركز مساومة وقوة مع هذا النفوذ القوي الزاحف على الشرق .

٣ ـ قررتبريطانيا أنيكونالعراقهو قاعدةالحربالباردة فيالشرق العربيوالاسلامي ضد الاتحاد السوفيتي، لأنه كماقال معقببريطاني: « ان الحقيقة الرئيسية الحاسمة هي موقع الحبانية قاعدة سلاح الطيران البريطاني في شمال غرب بغداد ، فهي تتمتع بمركز فريد ممتاز في الصراع الدولي القائم ، وهي تقع على بعد ستمائة ميل من باكو مركز البترول السوفيتي وعلى بعد ستمائة ميل من السويس وعلى بعد ستمائة ميل من حيفا، وهي لهذا تستطيع أن تكون قاعدة مثالية للطيران البعيد المدى في الاتجاهات الثلاثة ، وهي القاعدة الوحيدة في الشرق الاوسط التي تستطيع ان تقدم الحماية للطائرات المقاتلة وان تكون قاعدة العمليات لقاذفات القنابل لكي نهاجم كل المواقع الروسية القريبة من الشرق الاوسط على حدود

ايران الشمالية أو تركيا الشرقية ، وهى أيضا القاعدة الوحيدة التى تقع على قدر كاف من الامان من قواعد قاذفات القنابل الروسية وهذه ميزة لا تتمتع بها اكثر القواعد الجوية الجديدة التى اقيمت بمساعدة امريكا فى شرق تركيا » .

« وقاعدة الحبانية الجوية هى فى الواقع خير رد وخير مطمئن للفزع الذى يحسه وزير الدفاع الامريكى جيمس فورستال الذى اعلن لقواد القيادة الامريكية المشتركة انه فى حالة الهجوم الروسى ، فان كل حقول البترول فى الشرق الاوسط ستسقط لاستحالة الدفاع عنها » .

ولم تكن قاعدة الحبانية فقط هى ميزة العراق فى الحرب الباردة ، بل كانت بريطانيا تأمل بقيام التكتل العربى والتكتل الاسلامى أن تخلق قوة اسلامية تستطيع اثارة واستغلال مسلمى الاتحاد السوفيتى فى جمهوريات اسيا السوفيتية ، وأن تجعلهم مصدر قلاقل واضطرابات للروس ، وأن تفسد بهذا الاستراتيجية السوفيتية الجديدة التى قامت على توزيع صناعاتها العسكرية والذرية والثقيلة عامة فى آسيا وفى الجمهوريات الاسلامية .

٤ ــ قررت بريطانيا ان تجعل العراق مركزا لامبراطوريتها البترولية فى الشرق الاوسط ، فقد بدأت واحتدت خلال الحرب العالمية الثانية حرب عنيفة بين شركات البترول الامريكية والشركات البريطانية ، واستطاعت الشركات الامريكية اشباعا لثأر قديم متصل بينها وبين الشركات البريطانية ، ان تدفعها الى المحل الثانى ، وأصبح هم بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية هو الاحتفاظ بقواعدها البترولية وتجميعها وتنسيقها وتدعيمها أمام الزحف الكاسح الجديد .

وكان تدعيم السيطرة على العراق يؤمن طبعا بترول العراق ، وكانت كركوك هى أكبر حقل بترول وجد فى العالم ، ويؤمن بترول ايران الذى كانت بريطانيا هى المسيطرة عليه . ورأت بريطانيا أيضا

أن تجعل العراق مركزا لحلف فيدرالى ـ بترولى ـ يضم العراق ومحميات الخليج حتى عدن ، وتحتكر انتاج البترول فيه أو نفوذ بنصيب الاسد الشركات البريطانية، وبذلك يستطيع هذا الحلف أن يصد الزحف الأمريكى الاقتصادى والسياسى ،الذى بدأ يبنى مشاربعه على أساس تثبيت نفوذه فى مصر والمملكة السعودية .

٥ ـ حينما فشلت بريطانيا فى أن تجعل الجامعة العربية مخلب القط لمشاريعها ، وحينما فرضت امريكا اسرائيل بالقوة على الشرق العربى، وحينما قادت مصر المعركة الوطنية ضد الاستعمار البريطانى، أصبح العراق هو قاعدة وأمل بريطانيا فى انقاذ كل ما يمكن انقاده، وضد ما يمكن صده ، أو اخماد ما يمكن اخماده من الثورة الوطنية العربية التى اشتعلت فى كل أرجاء الوطن العربى .. وقد استطاعت بريطانيا ان تخلق فى العراق أقوى رجعية مدربة محنكة تعتمد عليها بريطانيا فى تخريب الثورة العربية وفى بث العمـــلاء والجواسيس والمخربين من الاطلسى الى الخليج .

الفصل الثاني

العراق والاستعمارية الأمريكية

« ان شركات البترول تستطيع طبعا أن
تملى ارادتها على الكونجرس ، ولقد حان
الوقت لكى نقرر هل من حق شركات البترول
أن تدبر حكومة هذا البلد لصالحها الخاص .

« هارولد ايكس »
مستشار شئون البترول
لفرانكلين روزفلت

كان العراق أول بلد عربى تسلل اليه النفوذ الاستعمارى الأمريكى فى أوائل هذا القرن .

وقد بدأ التسلل الاستعمارى الأمريكى الى الشرق العربى منذ أواخر القـرن الماضى ، وكان جزءا من حركة التوســع الامريكى الاستعمارى عامة ، وهو توسع بدأ بعد أول أزمة حقيقية أصابت الاقتصاد الرأسمالى الأمريكى فى منتصف ذلك القرن، وأدرك بعدها أن السوق الداخلى وأسواق أمريكا الجنوبية لم تعد تكفى وأن لا بد من النظر عبر المحيطات .

وقدأخذ التوسع الاستعمارى الأمريكى فى أول أمره صورة ماسمى « الباب المفتوح » وهو مطالبة أمريكا بأن يسمح للرأسمال الأمريكى بأن يعمل على قدم المساواة ، مع الرأسمال الأوروبى ، فى الأسواق آسيا وأفريقيا التى كانت تسيطر عليها فى ذلك الحين الامبراطوريات الاستعمارية الأوروبية ، على أن لاتمس أمريكا أو تتعرض للنفوذ السياسى الأوروبى فى تلك البلاد .

وقد كانت أول بلاد تطلعت اليها أمريكا لتطبيق سياسة الباب المفتوح هى بلاد الشرق الأقصى والشرق الأوسط، وكان الصراع الاستعمارى قد بلغ ذروته حول سوق الصين، وحول المسألة الشرقية ووراثة تركة الرجل المريض .

السعى وراء البترول

وكانت شركات البترول الأمريكية هى طليعة التسلل الاستعمارى الأمريكى الى الشرق الأوسط ، وقد كانت هذه الشركات تشعر بحسد وحقد شديد نحو الشركات البريطانية منذ استولت بأبخس الاثمان

على حقول البترول الغنية غنى فاحشا فى ايران ، ومنــذ بسطت نفوذها على المنطقة كلها استعدادا لاحتكار بترولها كله .

وقد كان معروفا منذ اكتشاف بترول ايران أن المنطقة كلها الممتدة عبر ايران الى العراق والصحراء العربية ومحميات الخليج تطفح بالبترول المخزون ، وأن ما ينقص هو تذليل العقبات السياسية للبحث عنه واستخلاصه .

وكانت شركات البترول الأمريكى تمارس نفوذا كبيرا على الرئيس تيودور روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكيــة فى أوائل هذا القرن ، كنفوذها على معظم الرؤساء ، وكان هذا الرئيس من أنصار التوسع الأمريكى المتحمسين، وكان ينادى دائما بماسماه سياسة العصا الغليظة أى أن تنفذ أمريكا توسعها بالقوة ، وبضرب كل من يقف فى طريقها .

وأرسل الرئيس تيودور روزفلت مبعوثا خاصا له الى اسطنبول، عاصمة الرجل المريض ، ومهبط كل المغامرين والافاقين الدوليين طوال القرنين الماضيين ، وكانت مهمة المبعوث الخاص هى الاشتراك فى معركة الحصــول على الامتيازات والتى بلغت ذروتها فى أوائل القرن بين الاستعماريين البريطانيين والألمان والفرنسيين والروس ، والخروج بنصيب لأمريكا من هذه الغنيمة الثمينة ، على أن يكون فى هذا النصيب ، بل على رأسه » قسط من بترول الشرق الأوسط .

وقد ركز المبعوث الخاص وكان اسمه « الاميرال كولبى شستر » كل اهتمامه فى الحصول على امتياز بترول منطقة الموصل التى كان معروفا أنها لا تقل غنى فى البترول عن حقول ايران ، واســتطاع الاميرال أن يقنع السلطان عبد الحميد بمنح الشركات الأمريكية هذا الامتياز .

وثارت ثائرة الشركات البريطانية ، واسرعت للاتفاق مع منافستها اللدودة وهى الشركات الألمانية واستطاعا معا انتزاع امتياز ما سمى

«شركة البترول التركية» من الأميرال والشركات التى جاء لحسابها.

وساعد الحظ الأميرال حينما سقط عبد الحميد أثر ثورة سنة ١٩٠٨ التى قام بها ضباط جمعية الاتحاد والترقى ، وسقط امتياز شركة البترول التركية بسقوط عبد الحميد ، لأن الاتحاديين كانوا سيىء الظن بالشركات البريطانية ، واستطاع الأميرال أن يكسب الجولة الثانية سنة ١٩١٠ وأن ينتزع امتياز بترول منطقة الموصل. ووقع الاتفاق ولكن تأجل التصديق عليه لقيام الحرب الايطالية التركية سنة ١٩١١ — ١٩١٢ ، ثم تأجل الموضوع كله لقيام الحرب العالمية واشتراك تركيا الى جانب المانيا فى تلك الحرب .

اتفاق بريطانيا وفرنسا

ولم تنس امريكا مطلقا خلال الحرب العالمية الاولى امتيازها فى بترول الموصل ، وتفاديا للاحتكاك المباشر مع أمريكا قررت بريطانيا فى معاهدة سايكس — بيكو ، وهى المعاهدة التى وقعت خلال الحرب مع فرنسا لتقسيم الشرق العربى ، ان تكون منطقة الموصل من نصيب فرنسا .

وحينما انتهت الحرب العالمية الأولى بدات المعركة حامية بين ويلسون ولويد جورج وكليمنصو حول بترول الموصل . وأخيرا تم الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا من وراء ظهر أمريكا حول الموضوع ، وتقرر أن :

١ — تتخلى بريطانيا عن تأييدها لحكومة الأمير فيصل العربية التى قامت فى دمشق نتيجة لوعود بريطانيا للعرب ، وتنسحب الجيوش البريطانية من سوريا ولا تتدخل اذا ما تقدمت الجيوش الفرنسية لاحتلالها وطرد فيصل .

٢ — تتنازل فرنسا عن مطالبتها بمنطقة الموصل الى بريطانيا على أن تشترك شركات البترول الفرنسية مع شركات البترول البريطانية

فى استغلال بترول العراق عامة . وتسمح فرنسا بمد خطوط أنابيب البترول عبر سوريا .

وفى معاهدة سان ريمو التى وقعت سنة ١٩٢٠ والتى وزعت الشرق العربى بين بريطانيا وفرنسا ، تقرر بين الدولتين أن تحتكر الشركات البريطانية والفرنسية وحدها استغلال بترول الشرق الأوسط ، وأن لا يسمح للشركات الأخرى بأن تشترك فى هذا الاستغلال ، وأن أى شركة تتكون لاستغلال بترول الشرق الأوسط يجب أن تكون تحت السيطرة التامة الدائمة لبريطانيا .

الشركات الأمريكية تثور .. وتفوز :

وثارت ثائرة أمريكا لهذا الاتفاق ، وجن جنون ويلسون وقدم سفير الولايات المتحدة فى لندن احتجاجا رسميا عنيفا الى الحكومة البريطانية جاء فيه « ان بريطانيا قد هيأت الأمر فى هدوء لكى تحتكر بترول العراق وذلك كجزء من سياسة عامة لاحتكار بترول الشرق الأوسط ، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية التى اشتركت فى كل تبعات الحرب لايمكن أن تعزل عن الاشتراك فى مزايا السلم »

وطالب ويلسون الحكومة البريطانية رسميا خلال مفاوضات الصلح بأن « تشترك الشركات الامريكية للبترول فى استغلال بترول الشرق الأوسط على قدم المساواة مع الشركات البريطانية وذلك تطبيقا لسياسة الباب المفتوح التى تصر عليها الولايات المتحدة الأمريكية » .

ودارت مساومات ومباحثات متصلة عنيفة حتى أمكن أن تفوز الشركات الأمريكية بتحقيق ماسعت اليه ، وأن تشترك فى استغلال بترول العراق بنسبة الثلث تقريبا وأن تشترك أيضا فى استغلال بترول ايران» وذلك وفق تسوية بين شركة ستاندارد أويل الامريكية عميدة شركات البترول الامريكية وشركة الانجلو ايرانيان البريطانية العتيدة ، التى كانت قد أعدت كل شىء للسيطرة على الشرق

الأوسط كله . كما فازت فى تطبيق سياسة الباب المفتوح فى الشرق الأوسط . وقبلت الشركات الأمريكية مقابل هذا ماسمى اتفاقية « الخط الأحمر » وهى اتفاقية تقضى بأن تصبح الشركات البريطانية والفرنسية أوتوماتيكيا شريكة فى كل مشروع بترول تقوم به الشركات الأمريكية فى الشرق العربى .

السياسة تحمى الشركات :

وفى سبيل ارضاء شركات البترول الأمريكية ومقابل هذه الصفقة الموفقة « تخلى ويلسن عن تطبيق مبادئه الأربعة عشر فى الشرق الأوسط ، وتخلى عن تأييده للعرب ، ووافق على الحماية على مصر وعلى الانتداب الفرنسى فى سوريا ولبنان والانتداب البريطانى فى العراق وفلسطين ، بل وتخلى ويلسن كما يقول أحد مؤرخيه عن تأييده للأكراد ، فى شمال العراق ، وعن تأييده لشعب آخر كانت أمريكا تقيم الصخب والضجيج من أجله وهو الأرمن » ويورد هذا المؤرخ خطابا أرسله زعيم الأرمن الى السناتور بوراه رئيس لجنة الشئون الخارجية فى الكونجرس الأمريكى فى ذلك الحين يقول

« سيدى السناتور

« لقد قايضتم على مليون آدمى شردوا وطردوا من وطن اجدادهم مقابل نصيب من بترول الموصل ومقابل نصيب من مخزون البترول فى الأرض التى طرد منها هؤلاء الضحايا !!! »

ويقول نفس المؤرخ « ان ويلسون كان يبدو سعيدا لأنه دفع بريطانيا لا أمريكا لكى تبدو وكأنها هى التى أخلت بالوعود والمبادىء الطنانة التى ملأت الأسماع خلال الحرب ، وبعدها !!! »

الصراع الامبريالى يحتدم :

ورغم هذا النجاح الذى حققته شركات البترول الأمريكية

بحصولها على الميزات الاقتصادية بغير المناعب السياسية ، الا انها لم تكن لتقنع به ، وشركات البترول كما توصف فى أمريكا ، كسمك القرش متوحشة مفترسة ، لا تقنع بأى عدد من الضحايا ، ولهذا وضعت خططها ورسمت سياستها على اساس الاستيلاء على المكان الأول فى الشرق الأوسط وازاحة النفوذ البريطانى البترولى منه . وذلك لأن بريطانيا حتى نشوب الحرب العالمية الثانية كانت تتحكم فى ٣/٤ بترول العالم كله ، وهذه حقيقة كانت تذكرها دائما ولا تنساها شركات البترول والدوائر الاقتصادية الأمريكية الرسمية والأهلية .

وشهدت فترة مابين الحربين صراعا حارا متصلا لاينقطع بين شركات البترول البريطانية والأمريكية حول الحصول على امتيازات البترول فى منطقة الخليج الفارسى وشبه الجزيرة العربية ومصر . وكان الفوز دائما من نصيب بريطانيا حتى ضجت وزارة الخارجية الأمريكية واعلنت فى تصريح « خشن » أن من مبادىء الامبراطورية البريطانية «استبعاد أى طرف آخر من النفاذ الى مخزونات البترول فى انحاء الامبراطورية رغم محاولة بريطانيا دائما السيطرة على منابع البترول فى أى مكان فى العالم »

ورغم الباب المفتوح واتفاقية الخط الأحمر والاشتراك فى استغلال بترول العراق وايران ، الا ان العراقيل كانت توضع دائما بنجاح وبطريق مباشر أو بطريق غير مباشر أمام الشركات الأمريكية ، وكان سلاح بريطانيا القوى هو سيطرتها السياسية على حكام وأمراء وسلاطين العرب ، « الذين أودعت الطبيعة (للأسف) أغنى منابع البترول فى اراضيهم » ، كما كان يقول الأمريكيين .

ولم تستطع أمريكا الحصول على بعض الامتيازات الا خلال الثلاثينات حينما عصفت الأزمة العالمية بالاقتصاد الأوروبى والأمريكى ، وبدأت بريطانيا تعجز أو تتوانى عن مساعدة هؤلاء الحكام ، أو فى المناطق التى طرحتها الشركات البريطانية كمناطق ميئوس من وجود البترول فيها ، وكان أخطرها واشهرها واشدها مرارة على بريطانيا ، العربية السعودية .

الحرب العالمية الثانية :

وخلال الحرب العالمية الثانية كانت الشركات الامريكية قد استطاعت ان توطد نفوذها على بترول الشرق الاوسط. وكما طفى الحلفاء الى النصر فى الحرب العالمية الأولى على بترول ايران ، طفوا فى هذه الحرب على بترول العرب .

وبدا رجال السياسة والاقتصاد فى امريكا يطالبون بما سموه «سياسة خارجية بترولية فىالشرق الأوسط» وذلك لأن « عاصمة امبراطورية البترول فى العالم تنتقل الى الشرق الأوسط ، اى الى الخليج العربى والبلاد المجاوره مثل العراق والكويت والبحرين وربما افغانستان ، وهى لاتنتقل بسرعة الجمل » وذلك كما قال المستر هارولد ايكس مستشار روزفلت لشئون البترول ولأن « مركز الثقل العالمى لانتاج البترول ينتقل من البحر الكاريبى الى الشرق الأوسط حول الخليج الفارسى ، ويبدو أنه ذهب هناك ليبقى » ، وذلك كما قال تقرير لجنة من الكونجرس الى روزفلت. وقد تألفت خلال الحرب لجنة برلمانية امريكية لدراسة مشكلة البترول عامة من كل جوانبها ، وبعد دراسة مفصلة اصدرت اللجنة تقريرا انتهت فيه الى « ضرورة التوسع الشامل فى انتاج البترول وفى استثمار مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية لمنابع البترول فىالخارج على أن تمنح الحكومة الأمريكية تأييدها السياسى والدبلوماسى كاملا للشركات الأمريكية التى تقوم بالاستثمار والانتاج فى الخارج وان تقدم لها كل الحماية اللازمة »

وكان اخطر ما فى اللجنة ان رئيسها سناتور يدعى هارى ترومان!

سياسة «الوجود» :

وكان البترول والاستراتيجية هما اهم العوامل التى حددت

السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط عامة بعد الحرب العالمية الثانية .

وقد قررت الولايات المتحدة الأمريكية ماسمى بسياسة «الوجود» فى الشرق العربى، وذلك بأن يكون لها قواعدها السياسية والاقتصادية والعسكرية لتمارس نفوذها المباشر وتحمى مصالحها الرئيسية عن طريقها

واذا كانت بريطانيا قد تنبهت لهذا الخطر وقررت ان تقيم الجامعة العربية لتعبىء تحت لوائها كل العناصر والقوى الموالية لها، ولتجعل منها الحاجز الذى يصد ويوازن النفوذ الأمريكى ، فقد قررت امريكا ، كسياسة مضادة :

١ ــ اقامة اسرائيل والاعتماد على الصهيونيين أعداء العرب الألداء التقليديين والذين تحولوا الى عداء بريطانيا بنفس الشدة

٢ ــ شراء تركيا وتحويلها الى قاعدة للنفوذ الأمريكى وقاعدة لجذب البلاد العربية الى الفلك الأمريكى

٣ ــ تحطيم الجامعة العربية والمشاريع البريطانية الأخرى مثل الهلال الخصيب أو سوريا الكبرى باجتذاب البلاد المعادية لبريطانيا فيها ، وبتشجيع الحركات الوطنية المعادية لبريطانيا ، أو شراء الحكام القابلين للشراء بثمن أكبر ، أو ملء الفراغ الذى خلفه اقصاء النفوذ الفرنسى عن الشرق العربى . وقد ركزت أمريكا جهودها وفقا لهذه السياسة فى مصر والسعودية وسوريا ولبنان ، وابتعدت عن العراق والأردن مؤقتا

٤ ــ تدعيم النفوذ الأمريكى فى البلاد الاسلامية المحيطة بالجامعة العربية ، واستبدال الجامعة العربية التى تحبذها بريطانيا بالجامعة الاسلامية لحساب أمريكا .

الاتفاق على تقسيم الغنيمة :

ورغم الحرب الباردة العنيفة التى دارت فى الميدانين السياسى

والاقتصادى بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا فى الشرق الأوسط الا أن حكومة الديموقراطيين فى أمريكا لم تكن تريد القضاء على النفوذ البريطانى فى الشرق الأوسط ، وهى كانت تريد مجرد « الوجود الجزئى » فى المنطقة، وبالقدر الذى يحمى ويؤمن مصالحها الجوهرية والرئيسية

وذلك لأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تحتاج الى بريطانيا فى مناطق أخرى كثيرة فى العالم ، بعد اشتداد الحرب الباردة بين الكتلة الغربية والشرقية ، ولأن الولايات المتحدة الأمريكية تفضل أن تقوم بريطانيا بكل « الأعمال القذرة » ضد الحركات الوطنية والاشتراكية واليسارية فى المنطقة ، وهى حركات كانت تهددالنفوذين البريطانى والأمريكى معا ، وكانت بريطانيا تملك خبرة أكثر فى حربها ومناهضتها .

وانتهى الديموقراطيون الأمريكيون الى أن خير مخرج لمشاكل الشرق العربى بين بريطانيا وأمريكا والعرب والصهيونيين هو اقامة حلف ومنظمة دفاع شاملة للمنطقة تشترك فيها بريطانيا وفرنسا وأمريكا وتركيا والبلاد العربية بزعامة مصر ، وتتجمع وتتناسق فيها كل المصالح ضد العدو المشترك وهو الاتحاد السوفييتى .

وكان النفوذ الأمريكى فى مصر قد توطد أو ظن أنه توطد فى السراى وفى بعض الطبقات الحاكمة وفى قطاعات قوية من الحركة الوطنية واعتقدوا أن مشروع حلف الدفاع عن الشرق الأوسط سينحقق ، ومن خلاله ، سوف تستطيع أمريكا أن تبرد الحركات الوطنية ، وان تستأصل الحركات الاشتراكية واليسارية ، وأن تحمى الصهيونية وأن تضع بريطانيا وفرنسا فى المكان الثانى وحيث يمكن استغلالهما ، وأن تسيطر على بترول الشرق الأوسط وعلى اقتصاده عامة ، وأن تحكم حصار الاتحاد السوفييتى استعدادا لحربه .

وكانت صدمة أمريكا الكبرى هى رفض مصر رفضا باتا ومباشرا وشجاعا لهذا المشروع ، ومن ذلك الحين تحولت أنظار أمريكا الى

العراق ... واذا لم يكن من الممكن تكتيل الشرق العربى بزعامة مصر ولحساب أمريكا فانه من الممكن تكتيله بزعامة العراق أو على الأقل باثارة التنافس بين مصر والعراق ، واستلهام الأفكارالبريطانية القديمة .

وبدأت أمريكا تتطلع الى قلعة النفوذ البريطانى الحصينة هناك وتفكر فى نقل مركز النقل للنفوذ الأمريكى ، جزئيا أو كليا الى بغداد ... وأصبح الأمر متوقفا على امكان اقناع أو ارغام بريطانيا، وامكان اجتذاب أو شد الطبقة الحاكمة فى العراق ، وعلى اليأس أو الأمل فى مصر .

مستر دالاس واحلامه :

وجاء المستر دالاس الى الحكم ولم يكن يؤمن كالديموقراطيين بالوجود الجزئى أو التوازن مع بريطانيا أو الاكتفاء بضمان المصالح الاقتصادية مقابل ترك النفوذ السياسى لبريطانيا ، بل كان يؤمن بالوجود الكلى والشامل والمباشر ، وسيطرة أمريكا الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية ، وبضرورة تصفية الامبراطوريات القديمة البريطانية والفرنسية لترثها أمريكا ، وبالاعتماد على المانيا فى اوربا واليابان فى آسيا بدلاً من الدول المنحلة القديمة التى انتهى دورها .

ولم يكن عجيبا أن قالت صحيفة نيوزويك يوم تولية دالاس وزارة الخارجية « ان وزارة الخارجية البريطانية ووزارة الخارجية الفرنسية قد اعلنتا الحداد اليوم !!. »

لم يكن المستر دالاس يعجب بسياسة الديموقراطيين فى حصار روسيا حتى تذوى وحتى يضج الشعب الروسى ويطيح بحكومته ، وكان يراها سياسة سلبية لا تليق بدولة عظمى هى أعظم واقوى وأغنى ما عرف التاريخ ، وكان المستر دالاس يرى انه لا بد من الاسراع باستكمال حصار روسيا ، كمقدمة لتحريرها وتحرير

السعوب الخاضعة لها ، وذلك لاستكمال سيادة أمريكا على العالم « الحر » حينما لا يصبح فى العالم سواه .

وتحقيقا لهذه السياسة جاء المستر دالاس ، وكان أول وزير خارجية أمريكى ينتقل الى السرق الأوسط والى آسيا ، ليختبر بنفسه ميادين عمله الرئيسية وأرض أحلامه الكبرى .

وكان المستر دالاس يرى أن سيطرة أمريكا على هذه البلاد ستحقق كل النتائج التى يريدها لأنها :

١ ــ ستكمل حصار الاتحاد السوفييتى والصين الشعبيةوذلك باقامة حلف لبلاد الترق الأوسط وحلف لبلاد الشرق الأقصىتكمل حلف الأطلنطى وبذلك تحكم حلقات الحصار

٢ ــ هذه البلاد تملك كل موارد المواد الخام والموارد البشرية والمواقع الاستراتيجية التى اعتمدت عليها الامبراطوريات الأوربية فى ثروتها وفى كسب كل الحروب الصغيرة والكبيرة التى شنتها

٣ ــ تستطيع أمريكا بسيطرتها على هذه البلاد أن تقضى على دعوة«الحياد الخبيثة» التى بدأتتنفذ اليها وتسود شعوبها، وتجعل منها خطرا على الولايات المتحدة الأمريكية لايقل عن الخطــر الشيوعى

وفى القاهرة عرض المستر دالاس سياسته الجديدة على الحكومة المصرية ، وبعدما عرضها أهدى ألى الحكومةالمصرية مسدسا، ويومها ثارت الصحفالبريطانية وقالتأن المستر دالاس يهدى مصرمسدسا لتوجهه الى قلب بريطانيا خلال مفاوضات الجلاء التى كانت دائرة ذلك الحين ، والواقع أن المستر دالاس كان يهدى مصر مسدسا لارهاب مصر ، واعلانا لعزمه على تنفيذ سياسته بالمســـدس ، لا بالاقناع ولا حتى بالعصا الغليظة .

سياسة المسدس فى التطبيق :

ولقد كان أول تطبيق لسياسة المسدس ودبلوماسية عصابات شيكاغو هى : اسقاط حكومة مصدق فى ايران ، وحكومة جاكوب اربنز فى جواتيمالا ، وحكومة منديس فرانس فى فرنسا ، وتهديد حكومات أوروبا جميعا بأنها لن تحصل على أى مساعدة أمريكية اذا لم توافق على معاهدات الدفاع الأوروبية ، وضم المانيا بعد تسليحها الى حلف الاطلنطى . وقد كانت هذه السياسة «هى الطريقة المثلى لسد الثغرات التى كانت قائمة فى كيان العالم الحر » ، كما قالت مجلة لايف مدافعة عن المستر دالاس وسياسته .

وقد تمت تصفية حكومة مصدق بانقلاب عسكرى خائن وبمذبحة بشعة » سفكت فيها بلا رحمة دماء الآلاف من زهرة شباب وقادة الجيش والأحزاب والجامعات فى ايران وقصد بها أن تكون درسا لكل الحركات الوطنية والثورية فى الشرق الأوسط .

وقد تقدم المستر دالاس بعد هذه المغامرة الارهابية بمشروعه للشرق الأوسط » وهو تطبيق جديد شامل للأفكار البريطانية القديمة » باقامة كتلة عربية تكون جزءا من كتلة اسلامية تكون قاعدة للسياسة الأمريكية الاستعمارية ضد الهند وضد مسلمى الاتحاد السوفييتى وضد كتلة الحياد وضد الكتلة الاشتراكية وتكملة لحلف الأطلنطى ثم حلف جنوب شرقى آسيا وكل الأحلاف الأخرى القادمة .

وأراد المستر دالاس أن يكون الحلف الجديد بزعامة مصر لمكانتها فى العالم العربى والعالم الاسلامى ، ولموقعها السياسى والاقتصادى والاستراتيجى ، وارضاء لمصر مارس المستر دالاس بعض الضغط على البريطانيين لكى يوافقوا على الجلاء عن مصر ولكن حكومة الثورة فى مصر كانت تدرك ماذا يريد المستر دالاس من ضغطه على بريطانيا وماذا يريد المستر دالاس بعد ضغطه على بريطانيا . وهى كانت

تعرف أنه يريد أن يجلو البريطانيين لكى يأتى الامريكيين « لأن الذى يسيطر على عقلية ساسة واشنجطن هو حلم السيطرة على الشرق الأوسط باخضاعه لأحلاف الغرب وهذه الأحلاف تشكل حلقة من حلقات الحصار الذى تفننت أمريكا وحلفاؤها فى فرضه على روسيا والكتلة الاشتراكية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . وقد تأكدنا أن أمريكا تريد أن تفرض سيطرتها على مصر بوسائل تظن أنها تخفى على الناس فى الوقت الذى أصبحت فيه سخرية كل الناس » وذلك كما كتب السيد أنور السادات .

وكانت صدمة المستر دالاس الكبرى هى رفض مصر الاشتراك أو تزعم أى أحلاف أجنبية واصرارها على نظريتها فى أن الدفاع عن الشرق العربى يجب أن ينبثق من قلب الشرق العربى ووفقا لميثاق الضمان الجماعى لأن الدخول فى أحلاف هو « استبدال الاستعمار الفردى باستعمار جماعى »

وأعلن المستر دالاس الحرب « الشاملة الرهيبة » وفق تعبيره ضد مصر وحكومة مصر ، ولم يستطع أن يتصور انه ، وهو الذى يسقط الحكومات فى أوروبا وفى أمريكا اللاتينية وفى الشرق الأوسط وفى آسيا ، يمكن أن تقف ضده حكومة بلد صغير ثائر اسمه مصر .

وتحول المستر دالاس وفق النصائح التقليدية الى العراق ، ووجد أعوانا فى خونة العراق الذين كانوا يحكمونه بالحديد والنار والذين كانوا يعيشون فى رعب مقيم من اشتداد الحركات الوطنية والشعبية فى العراق وفى العالم العربى عامة .

وقرر المستر دالاس جعل العراق قاعدة مشاريعه الجديدة فى اقامة كتلة عربية بغير مصر — كما كان مشروع نورى السعيد — ، واقامة كتلة اسلامية حولها — كما كان مشروع موظفى حكومة الهند البريطانية المفلسين المطرودين — ، وجعل العراق قاعدة لعزل مصر عن العالم العربى ثم هزيمتها وذلك باقامة حلف بغداد .

المعركة :

ونشبت معركة حادة بين قوى التحرر العربى بقيادة مصر وبين الاستعمارية الجديدة بقيادة خونة العراق ، واستعمل الاستعماريون فى هذه المعركة ، بمشورة حكام العراق الخونة، كل أساليب الارهاب والاغتيال والقتل لضم البلاد العربية ولو قسرا الى الحلف الجديد

١ ــ تعرضت سوريا لأقسى حملة تهديد تعرضت لها فى تاريخها وكان تهديدا جماعيا اشتركت فيه بريطانيا وتركيا وأمريكا التى تقدم سفراؤها بتهديدات وقحة وعنيفة وصريحة لوزارة الخارجية السورية ، فى ظل حسود من الجيوش التركية تجمعت على حدود سوريا ، وانتشر عملاء حكومة العراق الخائنة ينثرون الملايين لشراء السياسيين والعسكريين فى سوريا والقيام بحملة دعاية وتخريب واسعة النطاق أنشىء لها خاصة عدد ضخم من الصحف المأجورة ودربت لها قوى كثيرة بين البدو و« السوريين القوميين » وهم عملاء ايطاليا والمانيا السابقين الذين تبنتهم بريطانيا وامريكا بعد الحرب ، لتنفيذ خططها .

ولما هزأت سوريا بهذا التهديد ، وذهبت الى مؤتمر باندونج واشتركت اشتراكا مجيدا فيه ، قرر المستر دالاس ارتكاب احدى جرائمه الوحشية البشعة ، وذلك باغتيال العقيد عدنان المالكى لتفتيت الجيش السورى واشاعة الاضطراب فيه ، وكان رأى السفارة الأمريكية فى دمشق أن الجيش هو العقبة الوحيدة أمام انضمام سوريا ، وأن عدنان المالكى هو العقبة الوحيدة فى الجيش .

وقد دبرت جريمة اغتيال عدنان المالكى بين وزارة الخارجية الأمريكية وشارل مالك والسوريين القوميين والملحق العسكرى العراقى فى بيروت .

٢ ــ بناء على مشورة ملك العراق فيصل ومشورة نورى السعيد، أرسلت بريطانيا الجنرال السفاح تمبلر قائد عام القوات الامبراطورية

البريطانية وبطل مذابح الملايو المشهورة ، التى كانت تقتل فيها النساء وتعلق عارية فى الشوارع ، لارهاب شعب الاردن، وضم بلاده للحلف .

وكان جلال بايار رئيس جمهورية تركيا قد ذهب الى الاردن ، رلم يجد أى مشقة فى اقناع الملك حسين ومستشاره جلوب ورجال حكومته بالانضمام للحلف ، بل لقد رحبوا به ترحيبا شاملا حينما لوح اهم جلال بايار بالمساعدات المالية التى سوف تمنح لهم

وحينما أدرك الشعب فى الأردن مايدبر له بدأ ينظم المقاومة ويهيىء لمعركة حاسمة ، وجاء تمبلر ليعاون الملك حسين وجلوب فى اعداد مذبحة كاملة رهيبة لشعب الاردن، وضمه بالحديد والنار الى الحلف . وانفجرت المعركة ، وحدثت معجزة لم يتوقعها أو يتصورها أحد ، وثار شعب الأردن ثورة عارمة جارفة اكتسحت تمبلر وجلوب، والقت الرعب والجبن فى نفس الملك حسين، فتراجع وبدأ يتملق وينافق الثورة الوطنية العربية

٣ ـ استدعى دالاس ، بناء على مشورة حكام العراق عميله السفاح بن جوريون من عزلته فى الصحراء حيث كان قد قرر الاعتزال فى النقب والعمل هناك لخلق قاعدة صناعية وزراعية وعسكرية ضد مصر ، وكلفه القيام بسلسلة غارات ارهابية انتقامية ضد مصر وسوريا والاردن وكانت أشد هذه الغارات هولا هى الغارات ضد مصر والجيش المصرى وذلك « لأن لدى معلومات تقول بأن النظام فى مصر يتداعى ، واذا ما ألحقنا هزيمة بالجيش المصرى ثار على حكومته وأسقطها » كما قال مزهوا بن جوريون .

وقامت السفارة الامريكية فى القاهرة بتكملة لهذه الغارات ، بتعبئة كل العناصر العفنة والرجعية السياسية والعسكرية لتدبير سلسلة لاتنقطع من المؤامرات كانت تنفق عليها السفارة الأمريكية مباشرة أو السفارات العراقية والتركية .

وهكذا ، لكى ينجح حلف بغداد ، ولكى يتوطد الاستعمار الجديد

الجماعى ، أصبح العراق قاعدة الهجوم والتدمير والتخريب ضد الثورة العربية التحررية لحساب الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا

ولم يتورع حكام العراق الخونة عن أن يقتلوا ويخربوا ويسفكوا الدماء ، وينعاونوا حتى مع أحط اعداء العرب مثل السوريين القوميين وبن جوريون .

السياسة الاستعمارية تفشل :

وقد فشلت هذه السياسة مع هذا فشلا ذريعا لأن مصر وسوريا ذهبتا الى مؤتمر باندونج ، وبذهابهما قام محور الحياد العربى ، والتف حوله الشعب العربى من الرباط الى الكويت ، واصبح أمل الجماهير العربية وملهمها .

وفشلت هذه السياسة لان مصر وسوريا حطمتا الحصار العسكرى والاقتصادى المضروب حول الوطن العربى ، واشترتا السلاح من المعسكر الاشتراكى ، وقبلتا المعونات الاقتصادية منه وبذلك قلبتا ميزان القوى فى الشرق العربى كله .

ولأنهما اعترفتا بالصين الشعبية ووثقتا علاقاتهما مع ستمائة مليون هم شعب الصين العظيم ، ومع دولة هى أقوى دولة فى الشرق وسوق اقتصادى هو أعظم سوق فى العالم .

ولأنهما عقدتا ميثاق الدفاع الثنائى الذى وضع الأساس لوحدتهما المقبلة والوحدة العربية الشعبية الثورية .

ولم يبق فى حلف بغداد سوى حكومة عربية واحدة هى حكومة العراق تعمل ضد شعبها وضد الشعب العربى كله .

وكان هذا انتصارا تاريخيا حاسما أشاع الحقد المسموم فى نفس المستر «الاس المريضة المليئة بالصديد ، ودفعه الى المزيد من الثأر والتفكير فى الانتقام مهما كان صغيرا ووضيعا .. وكان يحفزه لهذا

الانتقام ويشجعه عليه ويهونه له حكام العراق ، الذين أصبحوا أدوات سهلة طيعة فى يديه .

دالاس ينتقم من مصر :

ووجد المستر دالاس فى سحب تمويل مشروع السد العالى فرصته للانتقام من مصر واذلال مصر واسقاط عدوته اللدودة وهى حكومة الثورة فى مصر .

وكما كتب السيد أنور السادات « كان المستر دالاس يستطيع أن يسحب العرض الأمريكى لمعونة السد العالى فى أية لحظة يشاء ، ولكن الذى أثار الحفيظة كان ذلك البيان المريب الذى خرج به المستر دالاس على العالم ليعلن أن سحبه لمعونة السد العالى انما هو مبنى على أساس أن اقتصاديات مصر لاتؤهلها لتلك المعونة وان الحكومة الأمريكية لاتحمل للشعب المصرى الا كل مودة وتقدير ، وهذا كان دعوة للشعب المصرى لكى يسقط جمال عبد الناصر وحكومته حتى يحصل على المعونة الأمريكية ، وكان دعوة للعالم كله لكى لا يعاون مصر اقتصاديا لأنها مشرفة على الهاوية » .

ولقد كان من الأسباب الهامة التى تذرع بها المستر دالاس فى سحب تمويل السد العالى المذكرة التى قدمتها حكومة العراق برئاسة السيد نورى السعيد ، والتى أشارت فيها عليه بضرورة عدم منح مصر اى معونة اقتصادية حتى لاتغضب أو تحرج حكومات حلف بغداد ، التى لم تحصل على مثل هذه المعونة .

وسواء كانت المذكرة مملاة من المستر دالاس نفسه وهو لم يعرف عنه الأخذ بالمشورة ، أو عملا مبتكرا من السيد نورى السعيد ، الا انها كانت دلالة على الدرك الذى هبط اليه حكام العراق ، والدور الذى وكل لحكام العراق القيام به ضمن استراتيجية المستر دالاس ، واستعدادهم للقيام بأى شىء ولو كان خنق الشعب فى مصر وتقويض تقدمه الاقتصادى وتقدم الوطن العربى عامة .

رد مصر : تأميم القناة :

ولقد رد جمال عبد الناصر على المستر دالاس ومشيريه وصنائعه « الذى زلزل كيان المعسكر الاستعمارى كله والذى كشفهم على حقيقتهم : لصوصا لا تجمعهم سوى المصالح المظلمة والمتناقضة ولا يمنعهم شىء من أن ينهشوا لحم بعض لو سنحت لأحدهم الفرصة

وامم جمال عبد الناصر « قنال السويس » وكان هذا عمــلا شجاعا عبقريا فجر كل القوى الثورية الكامنة فى الوطن العربى كله ، وفاض سيل ثورى عارم أثار فزع ورعب الحكام الرجعيين العرب جميعا ، وخاصة حكام العراق .

وطلب هؤلاء على الفــور القيام بعمل عســــكرى عاجل ضــد « شقيقتهم » مصر لضرب الثورة العربية فى قيادتها ولدفع الطوفان الذى انبثق تحت اقدامهم والذى لابد من دفعه فورا .

ولكن طلب اليهم المستر دالاس ان يسكتوا فسكتوا ، وذلك لأن المستر دالاس كانت له خطط أخرى ، وهو قدر أن فى تأميم القنال فرصة ذهبية لان يتدخل فى النزاع ، ويتوسط فيه لكى ينتزع خلال هذه الوساطة السيطرة على القنال لأمريكا . وكان حلم شركات البترول الأمريكية التى تعمل فى الشرق الأوسط منذ ازداد نفوذها وانتاجها هذه الزيادة الخرافية ، وأن تسيطر على قناة السويس ، أكبر شريان يمر منه البترول وناقلات البترول التابعة لها .

واخذ دالاس يمارس لعبته التقليدية التى يسمونها فى أمريــكا « التهازية المحامين المدلسين » ويسفسط هنا ويغالط هناك حتى اكتشف اللصوص الذين كان يحاول أن يسرقهم حقيقة مايريد وقرروا لهذا القيام بمغامرتهم لكى يستردوا بالقوة ، مايريد دالاس أن يسلبه بالدبلوماسية .

العدوان على مصر :

وحينما وقع العدوان على مصر اسرع المســـتر دالاس ليرتدى

مسوح الرهبان الذى يحتفظ به ويستعمله فى مناسبات كثيرة . واعلن انه ضد العدوان وضد العنف وضد انتهاك حرمات وحريات الشعوب الصغيرة « وهو كان يرى أن فرنسا وبريطانيا قد اتبعتا طريقا خاطئا ، ينير الرأى العام ويعطى الاتحاد السوفيتى فرصة للتشهير ، وكان ينصح خلال مؤتمر لندن بأن تفكر بريطانيا وفرنسا فى الطريقة التى تخلصت بها من مصدق » وذلك كما كتب مؤرخ حياته جون روبنسون بيل تم « لأن الساسة والزعماء الأمريكيين انقسموا انقساما حادا فى الرأى حول هذه الازمة وكان بعضهم مثل المستر دين اتشيسون وزير خارجية الديموقراطيين السابق يرى ابو قوف جانبا حتى ينهزم عبد الناصر ، أما البعض الآخر مثل المستر دالاس فقد كان يرى ضرورة ايقاف الحرب لانها غلطة ولانها ستقوى النفوذ الروسى فى المنطقة ولانه يمكن الاطاحة بعبد الناصر ومؤيديه عن طريق الضغط الاقتصادى » وذلك كما كتب المعقب الأمريكى ابلمان درلياز .

ولم تمنع معارضة المستر دالاس للمغامرة العسكرية ضد مصر من ان يعد العدة، من باب الحرص والاحتياط ، لانتزاع نتائجها اذا ما تمت وأدت الى نتيجة . وبناء على تعليماته ، تزعم حكام العراق هم وربيبهم رئيس جمهورية لبنان الدعوة لمؤتمر للملوك العرب يعقد فى بيروت لكى يضع « خريطة الشرق الاوسط بعد سقوط عبد الناصر » وحتى لا يستأثر البريطانيون والفرنسيون بهذه الغنيمة .

وشاءت سخرية الاقدار ان ينعقدهذا المؤتمر بعدهزيمة العدوان وانتصار مصر ، وان يلحوا على عبد الناصر لكى يرسل ممثلا له اليه.

ولقد منحت الحرب للمستر دالاس فرصة العمر التى كان ينتظرها، والتى كان يحلم بها الجمهوريون جميعا ، وهى القضاء نهائيا على النفوذين البريطانى والفرنسى فى الشرق الاوسط ، ووراثه التركة كلها خالصة .

مشروع ايزنهاور :

ولهذا لم تكد آثار العدوان تذوى ، حتى خرج المستر دالاس تحت قناع المستر ايزنهاور بمشروعه الجديد لحماية الشرق العربى، لا من عدوان استعمارى قد ينشب فى المستقبل ، ولكن من القوة التى وقفت الى جوار مصر ولعبت دورا جوهريا فى حسم وهزيمة العدوان .

وخرج الى الوجود مشروع ايزنهاور لملء الفراغ الذى خلفه انهيار الاستعمارين البريطانى والفرنسى ، ولحماية هذا الفراغ من ان يملأه الاتحاد السوفيتى والشيوعية .

والمستر دالاس لا يعترف بما لا يراه هو ، ولهذا لم يشأ يومها ان يقر بأن هناك شىء اسمه القومية العربية .

وتحقيقا لمشروع ايزنهاور دعى اقطاب الرجعية العربية الى زيارة واشنجطن . وذهب الى هنالك الوصى على عرش العراق عبد الاله ووزير خارجية لبنان شارل مالك .

وفى وزارة الخارجية الامريكية وضعت الخطة التى تقضى بأن :

١ — تبنى زعامة دينية سياسية جديدة تلتف حولها كل الرجعية العربية .

٢ — يسوى الخلاف بين الاجنحة المختلفة للرجعية العربية

٣ — تعدد العدة للقيام بانقلاب فى سوريا واقامة حكومة جديدة

تنضم للكتلة العربية الجديدة وتضم معها الاردن ، وتؤدى الى عزل مصر .

٤ — اذا لم يتم الانقلاب فى سوريا يدبر انقلاب فى الاردن يجعل منها قاعدة لقلب نظام الحكم فى سوريا .

٥ — تكتيل شمال افريقيا العربية ، واقناع الجزائريين بقبول

الحلول الوسطى والتدريجية وذلك لامكان اقامة حلف شمال افريقيا ، أو حلف البحر الابيض ليكمل مشروع ايزنهاور .

٦ ـ تكتيل الحزام الافريقى من الحبشة والسودان وكينيا ، واستغلال مياه النيل للمساس بحياة الفلاحين المصريين .

٧ ـ تدبير المؤامرات المحكمة المباشرة لاغتيال عبد الناصر اذا لم تنفع كل هذه المؤامرات .

فشل الاستراتيجية الاستعمارية :

ولم ينجح فى كل هذه الخطة سوى انقلاب الاردن الذى تكاتفت على انجاحه اموال الاستعمار وكل عملائه ، ولكنه كان نجاحا قصيرا ومحدودا تجمد بمجرد اتمامه . وكان مصلا نبه كل القوى التحررية ودفعها الى التضامن والتكاتف ضد هذه المرحلة الجديدة المستميتة القاتلة من الخطر .

ومرة اخرى ردت قوى الثورة والتحرر رداً زلزل أركان المعسكر الاستعمارى كله ، وكان عملا شجاعا جريئا .. جديدا كالاعمال التى تناوبته منذ انبثاق الفجر سنة ١٩٥٢ ! واعلنت وحدة مصر وسوريا .. وكان أعظم عمل فى تاريخ الحكم التاريخى التليد وهو الوحدة العربية .

وفاض المد الثورى فى كل مكان لقيام هذه القاعدة العظمى للتحرر العربى ، وبدا بل وتأكد ان شعبا ما لن يستطيع أن يدفعه أو يقف ضده ...

ومرة أخرى فزع المستر دالاس الى صنائعه فى العراق ، وهداهم تفكيرهم المفلس السقيم الى اقامة الاتحاد الهزيل بين العراق والاردن، ليكون ردا وحاجزا صادا للينبوع الحار الدافق الذى تفجر .

وكان اتحادا ممزقا من ولادته بمتناقضاته وافلاسه الروحى والمادى ولم يكن هناك ما يسنده سوى حراب المستر دالاس الذى

لم يتعلم شيئا من فشله الاول فى حلف الشرق الاوسط وفى حلف بغداد وفى مشروع ايزنهاور ثم فى آخر ما تفتق عنه عقله المحموم وهو الاتحاد العربى الهاشمى .

وفشلت الاستراتيجية الاستعمارية فى أن تجعل العراق قاعدتها وقلعتها الاولى فى الشرق العربى لانها نسيت وتجاهلت الحقيقة الاولى فى حياة العراق وهى ان هناك شعب عربى فى العراق .

الفصل الثالث

العراق والثورة العربية

« العراق هو بروسية العرب » هكذا كان يؤمن شعب العراق منذ بدء الثورة العربية .

العراق هو « سيبرية العرب » هكذا كان يريد الاستعماريون الأتراك العثمانيون ومن بعدهم الاستعماريون الغربيون .

وتاريخ العراق الحديث هو كفاح متصل لايهدأ ضد الذين يريدون أن يعزلوا العراق أو يفتتوا العراق لكى لايقوم بدوره التاريخى ، ولكى لا يحقق رسالته فى تحرير وتوحيد العرب .

وثورة ١٤ يوليه سنة ١٩٥٨ ليست حدثا منفصلا ولكنها قمة تطور وكفاح شاق وطويل لم تخل خطوة منه من البطولة والتضحية الخارقة .

ولا تفهم ثورة ١٤ يولية سنة١٩٥٨ ويدرك مغزاها الا باستعراض ما ساهم به شعب العراق فى الثورة العربية خلال مراحلها المختلفة ، وهى قد بدأت :

١ — بمرحلة الكفاح الدستورى للاستقلال الذاتى فى نطاق الامبراطورية العثمانية .

٢ — ثم مرحلة الثورة ضد الاستعمار التركى من أجل الاستقلال العربى التام والوحدة العربية الشاملة ، وبالتحالف مع المعسكر الغربى أو معسكر الحلفاء كما كان يسمى .

٣ — ثم مرحلة الكفاح الثورى والكفاح السياسى ضد الاستعمار الغربى الأوروبى ممثلا فى بريطانيا وفرنسا ، وذلك بعد خيانة الحلفاء للثورة العربية وتمزيقهم واقتسامهم للوطن العربى .

٤ — ثم مرحلة الكفاح لتصفية الاستعمار الغربى ، ممثلا

فى الكتلة الاستعمارية الغربية التى تتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتحالف والتضامن مع الكتلة الاسيوية الافريقية وذلك لتحقيق الاستقلال العربى التام والوحدة العربية الشاملة .

وقد بدأت « الدعوة » للقومية العربية فى أواخر القرن الماضى فى سوريا ولبنان ولكنها ما ان نفذت الى « سيبرية العرب » حتى وجدت أرضا خصبة تقبلت الدعوة بلهفة وما لبثت ان التهبت تحت تأثيرها وتقدمت الى صفوف الطليعة الأولى .

وقد قام شعب العراق بدوره كاملا خلال كل هذه المراحل منذ تزعم رجاله للمعارضة العربية فى مجلس المبعوثان « البرلمان التركى القديم » حتى ثورة ١٤ يولية سنة ١٩٥٨ .

المرحلة الأولى : الكفاح الدستورى للاستقلال الذاتى :

وقد كان هدف دعاة القومية العربية الأول هو تحقيق الاستقلال الذاتى واللامركزية الادارية للعرب فى الولايات العربية ، ولهذا حينما نجحت ثورة ١٩٠٨ التركية وهى الثورة التى قام بها شباب « جمعية الاتحاد والترقى » من الضباط والسياسيين ضد استبداد السلطان عبد الحميد ، استبشر العرب خيرا بهذه الثورة لأنه « كان يبدو فى الحقيقة أن العهد الجديد كان يبشر بحلول حقبة جديدة من الحرية والاخاء والمساواة وباقامة حكم ذاتى برلمانى تشترك فيه جميع قوميات الامبراطورية بنسبة عددها »

ولكن « هذا العهد المبشر بالخير والفال الحسن لم يدم طويلا ولم يستطع الشبان الأتراك الثوار أن يعدلوا عن فكرة السيطرة القديمة على شعوب الدولة ، وبينما كانت سياسة « العثمنة » فى برنامج الاتحاد والترقى تعنى نظريا أن جميع شعوب الامبراطورية يجب أن تتمتع بحرية ثقافية متساوية وأن الجميع يجب أن يتمثلوا فى البرلمان والمصالح الحكومية بقاعدة نسبية ، الا أنها فى الحقيقة أصبحت تعنى أن العناصر غير التركية لايمكن أن تعطى حقوقها او

حتى يتسامح فى وجودها الا بقدر قبولها لكل سياسات « الاتحاد والترقى » ، وكانت سياسة « العثمنة » فى البلاد العربية مثلا تعنى تحريم اللغة العربية وآدابها ، الحجر الأساسى الذى يرتكز عليه البعث العربى ، واستعمال اللغة التركية بصورة اجبارية فى الدوائر الرسمية والمدارس ، والتخلى عن جميع المؤسسات والتقاليد التى يعتز بها العرب ، وما لبثت أن أصبحت السياسة هى سحق الشعور العربى وتحويل العرب الى مواطنين أتراك صالحين ، وأثارت هذه السياسة طبعا اشمئزاز العرب فى العراق وفى سورية وبلادالجزيرة العربية » وذلك كما يقول مؤرخ العراق الأمريكى فيليب ايرلاند .

وكان رد الفعل لهذه السياسة هو انتشار الجمعيات السرية العربية التى بدأت تدرك أن الكفاح الدستورى فى نطاق الامبراطورية لن يؤدى الى نتيجة وأن لابد من الاستعداد لثورة استقلالية عربية وكان أهم هذه الجمعيات وأقواها هى « جمعية العهد » « وقد شكل الضباط العرب فى الجيش العثمانى ، وكان العراقيون ابرزهم ، جمعية العهد وهى جمعية سرية كان هدفها الكفاح لاستقلال العرب ، وقد بلغت شأنا عظيما فى الدقة والتنظيم حتى قيل ان أعضاءها بلغوا ٤٠٠٠ عضوا » .

وكان رد الفعل الثانى هو اضطراد انتخاب النواب العرب المعارضين لسياسة « الاتحاد والترقى » فى الولايات العربية ، وكان العراق هو ابرز مثل لهذا ، اذ كادت تكون أغلبية نوابه من المعروفين بعدائهم الصريح لسياسة العثمنة وبرنامج الاتحاديين ، وما لبث أن نزعم المعارضة العربية فى مجلس المبعوثان عراقى من ابرز شخصيات بلاد العرب التركية هو طالب باشا النقيب الذى قدر له فيما بعد أن يلعب دورا رئيسيا فى تكوين العراق الحديث .

وكانت المعارضة العربية فى مجلس المبعوثان على قسط كبير من الجرأة والشجاعة ، وكانت تنسق سياساتها وتتعاون مع قوميات الامبراطورية الأخرى الثائرة لتكوين جبهة من كل الشعوب الصغيرة

المطالبة بحريتها .

وبذلك يكون العراق قد قام بدوره فى الكفاح العلنى الدستورى فى البرلمان ، والكفاح السرى فى جمعية العهد .

المرحلة الثانية : الثورة المسلحة ضد الاستعمار التركى :

وحينما اضرمت الثورة العربية المسلحة فى الحجاز بقيادة الشريف حسين وأولاده ، وتجاوبت معها كل أرجاء العالم العربى ، حاول البريطانيون عزل العراق عنها ، وذلك لأن العراق كان تحت حكم ونفوذ حكومة الهند البريطانية المعادية للثورة الشريفية « وكانت معظم أخبار هذه التورة تمنع من النشر فى العراق أو لا ينشر عنها الا القليل جدا ؛ لأن السياسة البريطانية فى العراق قامت على ترسيخ أقدام السطوة البريطانية والحصول على مركز سياسى ثابت وليس فى خلق الشعور العربى القومى الذى قد يصطدم بالسياسة البريطانية »

ومع هذا كله ... « فان عرب العراق كانوا على اتصال وثيق بالقوى المتدفقة التى كانت تدفع العرب فى سوريا والحجاز وذلك بواسطة الجرائد التى كانت تصدر فى مصر وتهرب الى العراق بكثرة والمكاتيب التى كانت تترشح عبر البادية فتصل الى العراق » .

وقد لعب الضباط العراقيون دورا رئيسيا بطوليا فى قيادة الجيش العربى الذى قطع الزحف الطويل من مكة الى دمشق بقيادة فيصل بن الحسين لاعلان حرية ووحدة العرب .

ولعبوا دورا رئيسيا فى تنظيم حزب الاستقلال العربى الذى تألف من سياسيى وعسكريى الثورة ، وفى تأسيس الحكومة العربية الدستورية فى دمشق .

وحينما اغارت الجيوش الفرنسية على هذه الحكومة ، وغدر

البريطانيون بها ، عاد هؤلاء الضباط الى العراق ، ولعبوا الدور الرئيسى فى اضرام ثورة سنة ١٩٢٠ التى قلبت كل خطط الاستعمار الانجلو فرنسى فى الشرق العربى

وقد أذهلت ثورة ١٩٢٠ الاستعمار بعنفها وبطولتها وشمولها باشتراك كل الطبقات فيها ، وهى لم تؤدى فقط الى الاطاحة بكل ماتخيله وحلم به بناة الامبراطورية الهندية ، ولكنه قلب الخطط الانجليزية والفرنسية التى كانت ترمى الى تحويل البلاد العربية الى مستعمرات مباشرة وعقد البريطانيون برئاسة تشرشل مؤتمر القاهرة الذى وضع أسس الحكم الاستعمارى غير المباشر بواسطة رؤوس الهاشميين « المقنعة »

وعدل الفرنسيون كل خططهم فى حكم سوريا ولبنان ولم يطبقوا اسلوبهم التقليدى فى شمال افريقيا ، بل وندموا ندما شديدا على انهم لم يستبقوا فيصل ويتفقوا معه فى سوريا وكثيرون من معلقيهم على الشرق العربى يعتقدون أن أكبر غلطة ارتكبوها فى الشرق هى « الاطاحة بحكومة رجل كان على الاستعداد للاتفاق معنا وكان فى استطاعته تدعيم نفوذنا خيرا من كل سياسات جورو التى انتهت بطردنا من هناك نهائيا »

ورغم تولية فيصل عرش العراق الا أن بريطانيا استغرقت عشرة سنوات من القمع والخداع والتضليل لكى تعقد معاهدة بين العراق وبريطانيا تحل محل الانتداب ، وهى معاهدة قررت استقلال العراق الشكلى ، وان كانت اتاحت له دخول عصبة الأمم ، فكان بذلك أول دولة عربية تتمتع بعضوية العصبة .

ورغم سيطرة بريطانيا الفعلية على كل مفاتيح العراق وسياساته واقتصادياته واستراتيجيته الا أنها لم تستطع أن تمنعه أن يكون السند الرئيسى لكل الثورات العربية ضد البريطانيين والصهيونيين فى فلسطين ، وضد الفرنسيين فى سوريا ، وكانت العراق هى أهم مصدر للمال والأسلحة والمتطوعين ، والملجأ الرئيسى لكل المجاهدين اللاجئين والمنفيين ، طوال مدة مابين الحربين العالميتين .

المرحلة الثالثة : الكفاح الثورى ضد بريطانيا :

ولقد ركز البريطانيون فى العراق كل شىء حول شخصية فيصل ابن الحسين ، وعرقلوا قيام أى منظمات سياسية أو أحزاب وطنية ذات قيمة ، ولذا حينمامات فيصل الذى كان مصدر كل السلطات ، واجه العراق فراغا سياسيا هائلا فى الحكم ، ولما كان الجيش العراقى هو القوة الوحيدة المتكاملة المنظمة فقد قفز الجيش الى المقدمة ، واستطاع الاستيلاء على الحكم واستطاعت العناصر الثورية العربية أن تستولى على قيادة الجيش الذى أعده البريطانيون ليكون قاعدتهم .

واستطاع المربع الذهبى المشهور ، وهم الضباط صلاح الصباغ ومحمود سليمان وفهمى سعيد وكامل شعيب ، ان يجعلوا من الجيش العراقى قوة وطنية ثورية عربية ، ورقيبا على السياسيين العراقيين وحاميا لكيان العراق الداخلى والخارجى ، بل واصبح الجيش العراقى بضباطه ومخازن ذخيرته هو عماد ثورات فلسطين وسوريا . وتركز هم البريطانيين فى تفتيت هذا الجيش والقضاء على قيادته الثورية التى اصبحت أكبر خطر يهدد المصالح البريطانية فى الشمال العربى .

وحينما قامت الحرب العالمية الثانية أرادت بريطانيا جعل العراق قاعدة لاستراتيجية واسعة المدى تقوم على جر الشرق الأوسط كله للحرب وذلك باعلان العراق الحرب على المحور فورا ، وبذلك تتورط الدول العربية الأخرى ، وخاصة مصر ، ويجرها الى الحرب ، وكذلك تتورط دول ميثاق سعد أباد وهى ايران وتركيا وافغانستان ويجرها الى الحرب مع بريطانيا ، وحينما يعلن العراق الحرب تستطيع بريطانيا أن تتخلص من كل العسكريين والسياسيين المناوئين لها فى العراق بل وفى الشرق الأوسط كله

وقد تقدم رجل بريطانيا الأول نورى السعيد الذى كان رئيسا لوزراء العراق عند اعلان الحرب الى مجلس الدفاع العراقى الأعلى يطلب بصراحة :

١ ـ قطع العلاقات مع ألمانيا وحلفائها واعلان الحرب فورا

٢ ـ استخدام فرقتين من الجيش العراقى للقتال فى ليبيا أو فى البلقان مع الحلفاء على أن يتولى صلاح الدين الصباغ زعيم المربع الذهبى قيادتهما ... وهذا يعنى ابعاده

٣ ـ ارسال المفتى السيد أمين الحسينى مفتى فلسطين الذى كان هاربا فى العراق والذى التفت حوله عناصر ثورية كثيرة من المعارضة لتنسيق الكفاح على نطاق عربى شـــامل ، الى أمريكا ليكسب عطف الشعب الامريكى .. وهذا يعنى نفيه .

٤ ـ ازاحة رجال المعارضة العراقية أو اعتقالهم خلال الحرب .

وقد وقف الجيش العراقى يؤيده الساسة الوطنيون وقفـــة تاريخية صلبة ضد هذه المؤامرة وكانوا حائلا بين الاستعمار وعملائه وبين تنفيذها ، وأصروا على أن لايلتزم العراق الا بما تنص عليه المعاهدة العراقية البريطانية لأنه من السخرية أن يحارب العراق الألمان لحساب بريطانيا التى تستعمر بلاده » وكما قال قائد الجيش العراقى يومئذ لنورى السعيد خلال اجتماعات مجلس الدفاع العراقى : « تقترحون ياباشا ارسال فرقتين من الجيش العراقى الى البلقان » فلو مرت الفرقتان بحلب واستوقف الحلبى الجندى العراقى يسأله « خيوفين رايحين » فيجيبه العراقى « الى البلقان نحارب الألمان » فماذا تنتظر من الحلبى الا أن يقول « الله ... الله خيو وهذه سورية وفلسطين تحت أقدام الفرنسيين والبريطانيين؟ »

واعتبر الضباط انه من المهانة أن يكون جيش العراق مخلب قط لجر الشرق الأوسط كله الى هاوية الحرب .

وحينما يئست بريطانيا من خداع العسكريين والسـياسيين

الوطنيين فى العراق ، صممت على ان تلجأ الى القوة ، ودبرت مع السيد نورى السعيد والأمير عبد الاله الوصى على العرش مؤامرة الاستفزاز والعدوان الصريح المباشر على العراق سنة ١٩٤١ ، وهى المؤامرة التى هب الشعب والجيش منتفضا ثائرا ليصدها ويدفعها

وقد لوثت بريطانيا ومزيفى التاريخ الاستعماريين هذه الانتفاضة ووصموها « بالنازية » ليخفوا جريمتهم الوحشية فى تدبيرها وفى اخمادهما وفى المذابح التى أقاموها بعد قضائهم عليها ، ولم يشفى غليلهم حتى علقوا على المشانق ابطال المربع الذهبى الأربعة ، ونفوا السيد رشيد عالى الكيلانى زعيم الثورة السياسى سبعة عشر عاما خارج وطنه .

وكان كل ذنب الثورة أنهـا كانت تؤمن » كما جاء فى مذكرات الصباغ :

« أنا لا اؤمن بديموقراطية الانكليز ولا بنازية الألمان ، ولا ببلشفية الروس . انا عربى مسلم لا أرضى دون ذلك بديلا من مزاعم وفلسفات ، ولا أريد المقارنة أو المفاضلة بين هذه وتلك فهى عقيمة الجدوى لأنى حيثما أولى وجهى أرى الذئب الأجنبى يفترس أمتى ويسومها العذاب ، فى البحر الأبيض والبحر الأحمر وعمان وفى خليج البصرة وفى قلب الجزيرة وبجوار قبر النبى .

« وليس من ذئب أفتك بالعرب ولا من عدو الد للاسلام من بريطانيا ، أما العرب فانها قطعت أوصالهم دويلات وشيعا وقبائل ليتقاتلوا فتفوز بالأسلاب وتمنح سوريا لذا وغيرها لذاك ، واذا هب أحرار العرب فى فلسطين ومصر وعدن والامارات السبع والعراق، شحذت لهم المقصلة وشحنت لهم القاذفات بالنار . أما الاسلام، فمازال ثلاثمائة وخمسون مليون مسلم يرزحون تحت نير الاستعمار البريطانى . وكان « قلب الأسد » السفاح فى الحروب الصليبية بريطانى ، وكان اللنبى الذى فتح القدس وقال : « الآن تنتهى الحروب الصهيونية » بريطانى ، وكان غلادستون الذى رمى بالقرآن على

المنضدة وقال : « لا راحة فى العالم وهذا باق » بريطانى ، وكان كرومر الذى قال : « لا يؤخر المدنية الا هذا القرآن » بريطانى .

« وانك لو أطلعت على مواقع الاقطار والقارات فى العالم ولو ادركت مغزى الحروب البريطانية لأيقنت أنه لن تقوم للعرب قائمة الابزوال الامبراطورية البريطانية » .

ومهما كانت نتيجة ثورة سنة ١٩٤١ الا انها كثورة ١٩٢٠ قلبت كل خطط الاستعماريين البريطانيين وصنائعهم ، ولم تعد بريطانيا تجرؤ على جر اى بلد عربى للحرب ، بل ولم تجد بدا من قيام الحكومات الوطنية بالحكم خلال الحرب وهو أمر لعب دورا فعالا فى نمو القوى الوطنية والثورية نموا مضطردا قلب كل الموازين بعد الحرب .

***

وخلال الحرب العالمية الثانية وضع البريطانيون عن طريق عميلهم الأول مشروع « جامعة عربية بغير مصر وتعترف بالوطن القومى اليهودى » وهو المشروع الذى ورد فى الكتاب الأزرق الذى قدمه نورى السعيد الى المستر كيزى وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط سنة ١٩٤٣ .

ووقف القادة الوطنيون العراقيون ضد هذا المشروع واصروا على جامعة عربية شاملة ولعبوا دورا رئيسيا فى ابطال مشروع نورى السعيد وفى اقامة الجامعة العربية بزعامة مصر ، وضد الصهيونية .

وبعد الحرب العالمية الثانية اراد البريطانيون تدعيم نفوذ الهاشميين فى الشرق العربى وذلك بتحويل امارة شرقى الاردن الى ملكية وبتعديل معاهدة سنة ١٩٣٠ بين بريطانيا والعراق الى معاهدة جديدة « تجعل العراق محور سياسة بريطانيا فى الشرق العربى » كما قال بيفن وذلك بعد ثورة مصر سنة ١٩٤٦ واسقاطها لمعاهدة صدقى ــ بيفن والتجائها الى مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ !

وشنها حملة عربية عامة ضد السياسة البريطانية الاستعمارية الجديدة التى تزعمها بيفن .

وعقدت معاهدة بورتسموث سنة ١٩٤٨ بين المستر بيفن وبين صالح جبر رئيس وزراء العراق فى ذلك الحين لتكون أساس وبداية سياسة بيفن الجديدة التى شرحها حينما قال : « اننى لست على استعداد للتضحية بالامبراطورية البريطانية لأننى أعرف انه اذا سقطت الامبراطورية البريطانية فسيكون معنى هذا هبوط مستوى المعيشة بين ناخبينا هبوطا كبيرا ، وأن المصالح البريطانية فى الشرق الأوسط لم تساهم فقط فى تدعيم مصالح الأهالى هناك الى حد كبير ولكنها تساهم أيضا بنفس الحد فى اتخام مظاريف أجور عمال هذا البلد « بريطانيا » . »

وقبل أن يجف مداد معاهدة بورتسموث كان الشعب العراقى قد هب مرة أخرى فى انتفاضة من اعنف انتفاضات الشعوب بعد الحرب العالمية الثانية ، واطاح بالمعاهدة وشتت موقعيها الذين هربوا ناجين بجلودهم خارج العراق .

وهدم شعب العراق استعمارية حزب العمال البريطانى كما هدم استعمارية المحافظين ودق أكبر اسفين فى نعش سياسة بيفن الخارجية فى الشرق العربى كله» وهى السياسة التى كان يريد ان يبنى عليها كل مجده .

وبعد مؤامرات الهزيمة فى فلسطين التى استدرجت ودفعت فيها كل القوى الوطنية فى البلاد العربية ، انتابت الوطن العربى فترة من التضعضع والانهيار المعنوى، انتهزها الاستعمار باقامة الانقلابات فى سوريا ، واشعال حرب أهلية حزبية فى مصر وفرض حكومات الأقلية الارهابية عليها، وضرب الحريات السياسية والنقابية المحدودة التى كان قد سمح بها فى العراق بعد الحرب العالمية الثانية ، وبدأ هذا الضرب يأخذ أشكالا دموية عنيفة كلما اشتدت حاجة الاستعمار الى تهيئة العراق لمشاريعه .

وحينما بدأ اعداد العراق لحلف بغداد وجد نورى السعيد أنه لابد له من حملة ارهابية شاملة لتصفية المقاومة العراقية قبل أن يتيسر له عقد حلف بغداد . واصدر سلسلة القوانين والمراسيم ، التالية :

١ ــ مرسوم اسقاط الجنسية العراقية ، وبموجبه يخول لمجلس الوزراء بناء على توصية وزير الداخلية اسقاط الجنسية العراقية عن أى عراقى . .

٢ ــ مرسوم باعتبار كل الحركات الوطنية الديموقراطية « وما شاكل ذلك » تحبيذا للشيوعية يعاقب عليها بعقوبة أقصاها الاعدام أو الاشغال الشاقة ، وقد اشتهر هذا باسم مرسوم « ماشاكل ذلك »

٣ ــ مرسوم بالغاء كل النقابات العمالية والمهنية القائمة ووضع النقابات تحت السيطرة التامة لوزير الداخلية حتى لم يبق فى العراق سوى نقابتين مهنيتين هما نقابة المحامين ونقابة الأطباء .

٤ ــ مرسوم بالغاء جميع الجمعيات والنوادى والأحزاب ، من سياسية واقتصادية وفنية وحتى الجمعيات الدينية والرياضية ، وبلغ عدد ما الغى طبق هذا المرسوم ٤٧٢ حزبا وجمعية ونادى .

٥ ــ مرسوم بتعطيل جميع الصحف والمجلات ، سواء كانت سياسية أم علمية أم فنية أم قانونية أو دينية ، ولم تسمح سوى باصدار الصحف الحكومية او التى تسيطر عليها الحكومة ثم صحيفة للسفارة البريطانية باللغة الانكليزية .

٦ ــ مرسوم بمنع الاجتماعات والمظاهرات أيا كان نوعها .

وبعد هذا قرر نورى السعيد حل مجلس النواب القائم لأنه كان يضم بضعة نواب معارضين لايتجاوزون التسعة ، وقرر اجراء انتخابات جديدة فى ظل هذه القوانين الجديدة جاءت بمجلس نواب من ١٤٥ عضوا نجح منهم مائة بالتزكية ، وجاء الجميع بلا استثناء من أنصار نورى السعيد حتى لقب هذا البرلمان ببرلمان التزكية . وقام بمهمته بالموافقة بالاجماع على ميثاق حلف بغداد « وقد امهلت

لجنة الشئون الخارجية فى كل من مجلس البرلمان العراقى فرصة عشرة دقائق فحسب لدراسة نص الحلف وايصاء المجلس بالموافقة على ابرامه ، وتم ذلك حسب الطلب » !!.

ولقد اصبح واضحا منذ قيام الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ ثم الثورة السورية ضد الشيشكلى سنة ١٩٥٤ أن لابد من ارهاب اسود شامل لكبت القوى الثورية فى العراق ولابد من استعمار جماعى وارهاب رجعى جماعى للقضاء على هذه القوى .

المرحلة الرابعة : الكفاح لتصفية الاستعمار :

ومع ذلك فقد عجز النظام فى العراق عن القضاء على هذه القوى، بل وعجز عن استخدام جيش العراق أو ثرواته فى تحقيق أى مؤامرة لارغام البلاد العربية على الانضمام لحلف بغداد .

ولعب الوطنيون فى العراق سواء السياسيون منهم أو العسكريون دورا رئيسيا فى كشف هذه المؤامرات ، واحاطة الدوائر العربيةعلما بها .

وظهر عجز النظام ، وحيوية القوى الوطنية والثورية فى العراق حينما أممت مصر قنال السويس ، الأمر الذى تلاه العدوان الثلاثى على مصر وهو العدوان الذى وقع فجأة والذى كانت صدمته على العراق كصدمته على مصر تماما ...

« كانت الوجوه متجهمة فى جميع انحاء العراق فى المدن والنواحى والقرى ، فى كل بيت ومقهى ومدرسة وفى كل معمل وحقل ، النفوس الأبية كلها تحترق غضبا على المستعمرين والصهيونيين المعتدين » .

« وكان نورى السعيد يردد « حلف بغداد ضد اسرائيل » ولكن اسرائيل اليوم تحارب بجانب بريطانيا حليفة العراق وصديقة العرب والعضو البارز فى حلف بغداد .. ضد مصر !! بريطانيا حليفة نورى

السعيد تسير مع اسرائيل المسخ ومع فرنسا جلادة شعب الجزائر ضد مصر العزيزة ... مصر الثورة !!.

« واستمع الناس الى اذاعة بغداد لعل المعجزات تبدل موقف الحكومة من بريطانيا بعد أن بان غدرها واضحا . ولأنه مهما كان نورى السعيد قذر الا أنه قد لايصل الى حد السكوت عن اعتداء صارخ ، ومهما تكن خيانته عريقة فلابد له من أن ينافق على الأقل كما فعل فى السابق ، ولابد له من أن يعلن استنكاره للعدوان ، ويهدد بقطع البترول عن المعتدين ويمنعهم من استعمال مطارات الحبانية والشعبية .

« واستمع الناس الى اذاعة بغداد لعل المعجزات تبدل موقف العالم وتمر مرا على حوادث مهمة وقعت فى بلد اسمه مصر .... وهكذا الشعب المصرى يقاوم فى سيناء والاسماعيلية وبور سعيد ، ويتحمل قصف آلاف الطائرات برباطة جأش وشجاعة نادرتين ، واذاعة نورى السعيد ساكتة بل ومعلق الاذاعة يقول « عبد الناصر دخل فى معركة غير متكافئة وزج مصر فى مآزق تؤدى الى الدمار ، وجمال عبد الناصر لم يستمع الى رجل مجرب كنورى السعيد » ، اذاعة لصوص بغداد تتشفى بمصر وتردد الأخبار التى تذاع من لندن وتستعجل انهيار مصر لتزفه الى ادعياء العروبة والحرية والوحدة » .

« وعزف الناس عن سماع اذاعة نورى السعيد وأنصتوا بكل جوارحهم الى اذاعات القاهرة ودمشق ، والجماهير الواسعة تعود من عملها الى البيوت والمقاهى لتستمع الى « أحمد سعيد » ينادى القلوب من صوت العرب فيبعث فى النفوس الثقة ويدعو الى الثورة ضد الانكليز وصنائعهم » .

« وفى صباح اليوم الأول من نوفمبر اضربت جميع المدارس فى بغداد ، وقد تعود الشعب العراقى فى نضالاته الحديثة أن يعلن نذر الكفاح باضرابات الطلاب ومظاهراتهم » .

« وقد أضربت الكليات أولا ثم تبعتها المدارس الثانوية وتعالت الهتافات المدوية تسمع من خلف الجدران بسقوط الاستعمار المعتدى وبحياة الشقيقة الكبرى مصر » ..

«وماجت الأجسام الغضة وأخذت الحناجر تزمجر وترعد واهتزت ابنية المعاهد ولم تعد تحتمل هذه الأصوات الجبارة وخرجت الكتيبة الأولى من الطلائع تنظر بغضب وتحد الى البنادق المصوبة الى الصدور وسارت باتجاه السفاره المصرية وتبعتها كتائب اخرى جاوز عدد المشاركين فيها ثلاثة الاف طالب وطالبة » .

« وصاح شاب طويل يتقدم الصفوف : هلموا الى السفارة المصرية وسار وتبعته الجموع ودخلوا الى الدار ليسجلوا أسماءهم فى سجل الشرف :

« نحن شباب العراق جئنا متطوعين من اجل مصر نطالب بالسلاح للقتال مع ابطال بور سعيد وهتف الشاب الطويل وسط قاعة السفارة للقتال مع أبطال بورسعيد » .

«ولم يحتمل عملاء الانكليز هذه البادرة الخطرة فحضرت على الفور الشرطة المسلحة لتسكت هذه الأصوات الوطنية ولتتنكر لأبسط قواعد الأخلاق والاصول الدبلوماسية » فدخلت بناية السفارة المصرية واعتدت على الطالبات والطلاب وحتى على بعض الموظفين المصريين .

«وخرج الطلاب من دار السفارة الى المعركة ليدافعوا عن مصر، نيقابلوا جيوش الطغاة فى ساحات وشوارع بغداد . كانوا كجحفل لجب عنيد شـجاع لا يخاف الرصاص ولا يرى الخوذ الفـولاذية والمدرعات والرشاشات التى تزحف بعمد واصرار المجرم » .

واشتعل العراق كله بعد هذه المظاهرة التى وصفها كاتب عراقى هذا الوصـف المؤثر ، واسـتعمل نورى السـعيد فى اخماد ثورة العراق تضامنا مع مصر واحتجاجا على حكومة العراق ، ارهابا فاق كل ما ارتكبه فى تاريخه المخزى الطويل الملطخ بالدم والاشلاء ورقاب الأبرياء .

ولكن إثبتت القوى الوطنية الثورية فى العراق عروبتها وبطولتها تحت اشد الظروف حرجا وقسوة وفدائية .

وكانت هـذه الانتفاضة أحد الأسباب الرئيسية التى اثبتت للاستعماريين انه حتى حلف بغداد لايكفى لقمع ثورية الأمة العربية وأن لابد من فيد جديد اسمه مشروع أيزنهاور .

ولم يصلح القيد القديم ولا القيد الجديد لأنه لاشىء يستطيع مطلقا أن يقسر شعبا كشعب العراق أو يخمد أنفاسه ، وفى يوم ١٤ يولية سنة ١٩٥٨ انتفض لبكسر قيوده كلها واحدة وللابد .

* * *

قام العراق بدوره كاملا فى الكفاح ضد الاستعمار التركى وضد الاستعمار البريطانى وضد الاستعمار الأمريكى وكان سـندا قويا لكل انتفاضات وثورات العرب ضد الاستعمار فى أرجاء الوطن العربى كله ، ولكن مغزى ثورة العراق لن يكتمل الا اذا استعرضنا أثر ثورة العراق على أعدائنا التقليديين الثلاث وهم :

١ ــ الاستعمار .

٢ ــ الصهيونية

٣ ــ الرجعية العربية .

واذا اشتعرضنا اثر ثورة العراق على أهداف الثورة العربية الثلاث وهم :

١ ــ الحرية .

٢ ــ الوحدة .

٣ ــ الاشتراكية .

أثر ثورة العراق على الأعداء

الاستعمار

قالت صحيفة تايم الامريكية وهي أشهر مجلات الاستعماريين الأمريكيين وأشدها في الدعوة الى سيادة أمريكا ، غداة ثورة العراق ... « لقد سقط الباستيل » واجمعت على رأيها كل الصحف الأمريكية والبريطانية وقد اعترفت المجلة الأمريكية أن العراق كان الباستيل الذى سجنت فيه حرية العرب ، وأنه قد سقط ، وأن عصرا جديدا قد بدأ .

ويتضح أثر ثورة العراق على الاستعماريين حينما ندرك أثر انهيار حلف بغداد ومشروع ايزنهاور عليهم .

ولقد قامت فلسفة الاستعماريين بعد الحرب العالمية الثانية على الدعوة الى ماسموه « التكافل » وهى نظرية تقول بأن العالم أصبح مهددا بخطر جماعى جديد هو « الشيوعية » وأن على دول العالم أن تتناسى خلافاتها وان تنضم معا لكى تستطيع أن تدفع هذا الخطر ، وأنه لم يعد هناك شيء اسمه السيادة الوطنية أو الحدود الوطنية أو المطالب الوطنية ويجب أن تزاح هذه للمرتبة الثانية لأنه لامعنى لها أمام الخطر الشامل المشترك . وقد وضعت هذه النظرية التى روج لها أبواق الاستعماريين لهدف واحد هو تضليل الدول الصغيرة والمستعمرة واقناعها بالتنازل عن ثوراتها والبقاء فى كنف الامبراطوريات القديمة أو الجديدة .

وقد ردت شعوب آسيا وأفريقيا بأن دفع الخطر الجديد ، اذا كان هناك خطر ، يتطلب أن تستكمل الدول سيادتها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية وذلك لتؤمن بأنها تدافع عن كيانها وعن حريتها لا عن مصالح استعمارية غربية ، ولكى تستطيع أن تنمى قواها لتغدو شيئا يستطيع أن يصد أو أن يقف أمام الأخطار أيا كانت .

وكشفت الدول المستعمرة والصغيرة حقيقة مايراد بنظرية التكافل ، وانها مجرد قناع استعمارى جديد ورفضت الانطواء تحت أى أحلاف وأقامت كتلتها أو على الأصح جبهتها الحيادية السلامية .

وقد أراد الاستعماريون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تطبيق نظرية التكافل هذه فى الشرق الأوسط ، سواء منهم الاستعماريون البريطانيون أو الفرنسيون أو الأمريكيون ، وذلك عن طريق الدفاع المشترك أو المعاهدات الثنائية أو الأحلاف . وكان هدف هذه السياسة فى الشرق العربى ، هو انطواء الدول العربية فى ظل تكتل استعمارى شامل يستطيع أن يصرف أنظار العرب عن أعدائهم الحقيقيين ، وهم الاستعماريين والصهيونيين والرجعيين وأن يوجههم لمحاربة عدو موهوم أو بعيد ، وبذلك ينسى العرب أن معركتهم الحقيقية هى ضد هؤلاء الأعداء ويوجهوا قواهم ويعبأوها لمحاربة الشيوعية والاتحاد السوفييتى ، وبذلك يحققون أهداف الاستعماريين كاملة ، ويستمر هؤلاء فى استغلال موارد العرب ، ويستعملوهم كوقود للمدافع ضد أعدائهم هم .

وقد وجد الاستعماريون فى العراق خير سماسرة وأقدرهم على تنفيذ هذه السياسة ، وقام مفكر العملاء الكبير فاضل الجمالى ليعلن

« يجب أن نعيد النظر فى علاقاتنا مع بريطانيا ، لازلنا نفكر فى بريطانيا كما كنا نفكر فيها قبل ثلاثين عاما أى قبل الاحتلال ، ولازلنا نعتقد أن بريطانيا هى تلك بريطانيا — لاياسادتى ان بريطانيا تبدلت تبدلا أساسيا . ان بريطانيا جعلت الهند تستقل ، وجعلت الباكستان تستقل ، وجعلت بورما تستقل ، وسيلان تستقل ، وجعلت الساحل الذهبى يسير نحو الاستقلال ، وجعلت السودان يسير نحو الاستقلال ، وبريطانيا اليوم هى غير بريطانيا الاستعمارية ، وهى أمام خطر ، ونحن نجابه نفس الخطر . فاذا شاركتنا فى الخطر فهى تشاركنا فى التعاون فى المصالح المشتركة ومن ضمنها النفط . وكما أن بريطانيا

نفسها تبدلت يجب أن نتبدل نحن ازاء بريطانيا ويجب أن يسود بيننا تفاهم ودى تتوتق به العلاقات والتعاون بيننا» ذلك التعاون الذى يجرى بين الصديق والصديق لابين الضعيف والقوى ، ولذلك يجب أن ننظر الى الانكليز بعد اليوم لاكنظرتنا الى مستعمرين بل الى دولة صديقة نريد التعاون معها على أساس الحق والعدل والمصلحة المشتركة » .

« ان الاستعمار القديم أوشك ان يزول من الوجود وأن بريطانيا تخلت عنه وقد تخلت عنه أمريكا قبلها ولم تبق سوى دولة كبيرة « فرنسا » وهى سوف تتخلى عنه طائعة أو مجبورة »

وحينما بدأ الاستعماريون الأمريكيون يعدون لحلف بغداد ، انطلق نورى السعيد وفاضل الجمالى فى حملة تمهيد ودعاية شاملة قائلين :

« نحن قاسينا فى القرن الماضى وفى النصف الأول من هذا القرن من الاستعمار البغيض الذى أخذ ظله يزول ثم جاءتنا الصهيونية بخطرها وتكالبها ولكن هناك خطر اكبر استعمار جديد هو الاستعمار الشيوعى ، والاستعمار الجديد لايمكن أن تجابهه دولة لوحدها مهما قويت وعظمت شوكتها »

ومرة أخرى وقف فاضل الجمالى فى البرلمان العراقى يبرر ويردد ما لقنه له سادته قائلا :

« هناك نظريات ثلاث اليوم

١ ــ السير مع الشرق أى مع الشيوعية

٢ ــ الوقوف على الحياد

٣ ــ التعاون مع الغرب

« ونحن لا نريد السير مع الشيوعية وهذا شىء مبتوت فيه .
« ونحن لا نستطيع الوقوف على الحياد وهذا غير ممكن حتى لو

أردنا ذلك لأن الأمر لا يعود لنا بل للدول المتحاربة .

« اذن فالتعاون مع الغرب أمر لابد منه فان الخطر الشيوعى اليوم هو أكبر مما تتصورونه وهو يغزونا من الخارج ومن الداخل وان الخطر الشيوعى ليس له مثيل فى التاريخ وان هذا الخطر الشيوعى يكافح باقامة سد دولى كالسد الذى يحمينا من الفيضانات ، فاذا لم يكن محكما واذا وجدت فيه ثغرة فلاشك أن السد ينهار وأن العالم الحر سيصبح فريسة للغزو الشيوعى » .

وليس هناك ادل على براعة وسفسطة عملاء الاسعمار فى العراق من هذا اللون من التفكير، ومن ترجمة النظريات الاستعمارية الجديدة الى لغة العرب .

ولاشك أن فاضل الجمالى كان يعرف كيف استقلت الهند ، وكيف أرغمت بريطانيا ارغاما على الاعتراف بهذا الاستقلال وكيف صرح لورد ايسماى « كنا كركاب على سطح مركب فى وسط المحيط اشتعلت فيها النار وهى تحمل شحنة كبرى من الديناميت»

وكان يعرف كيف استقل السودان ، وكيف انتزع من بريطانيا انتزاعا ، وكان يرى يوم القى خطابه جيوش بريطانيا فى أرجاء العالم العربى ، خاصة العراق ، ويرى قنابلها تتساقط على اليمن مثلا ، ولكنه لم يستنكف أن يقف ليقول أنها تغيرت وانه لم يبق الا أن نتغير نحن لنكافح الشيوعية والاتحاد السوفييتى مع بريطانيا وأمريكا واسرائيل .

الصهيونية

كان الهاشميون هم خير ضمان للصهيونيين فى الشرق العربى ، ومنذ الثورة العربية الأولى انقسم الهاشميون حول مسألة الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، فرفضها رفضا باتا الملك حسين ، وكان هذا احدى حسناته ، وقبلها ولداه فيصل وعبد الله ،

وكان هذا سر المعركة الكبرى بينهم وبينه ، وقد بذل الانجليزجهدهم فى اقناعه بقبول الوطن القومى وبعثوا اليه بلورنس فرفض .

ومهما طنطن الهاشميون بعداوة اسرائيل والصهيونيين الا انهم كانوا دائما على استعداد للاتفاق معهم ، لأن سيد الاثنين كان دائما واحدا ، هو بريطانيا ثم امريكا .

وقد لعب الجيشان الهاشميان ـ العراقى والأردنى ـ بفضل قياداتهما الخائنة الدور الرئيسى فى تحويل حرب فلسطين من حرب عربية تحريرية ضد الاستعمار والصهيونيه الى حرب باردة بين النفوذ البريطانى والأمريكى ، وتوقف الجيشان الهاشميان عن الحرب حينما اتفقت أمريكا وبريطانيا على قسمة فلسطين الى دولة اسرائيلية والى منطقة عربية تضم الى شرق الأردن .

وقد كان الملك عبد الله عميد الأسرة الهاشمية هو أقرب الزعماء العرب الى قلوب الصهيونيين وكان معظم كتابهم يعتبرون بقاءه على عرش الاردن احدى الضمانات الكبرى لبقاء اسرائيل » وحينما مات رثته صحف اسرائيل بما لم ترثه به أشد الصحف العربية خيانة ونفاقا .

ولقد كان تأمين اسرائيل أحد الأهداف الرئيسية لاقامة حلف بغداد ومشروع ايزنهاور وقد وقف المستر ايدن فى البرلمان البريطانى يبرر حلف بغداد قائلا :

« ان هذه الاتفاقية من ناحية اسرائيل هى تطور مرغوب فيه حقا ، فلأول مرة تنظر دولة عربية فى اتجاه غير اسرائيل وأعتقد أن هذا التطور مهم جدا »

وقال « أعتقد أن نظرة جغرافية بسيطة تجعل الحكومة الاسرائيلية تعتقد أن الغرض من هذا الميثاق هو صرف نظر العراقيين الى إتجاه آخر ، ولما كان الاسرائيليون قوما أذكياء جدا فقد تصورت أن هذا الميثاق سيجعلهم فى أمن ودعة . »

وقال أيضا « منذ سنوات طويلة ، منذ مطلع حياة اسرائيل كانت تركيا صديقة حميمة لها وليس بمتصور أبدا أن تنضم فى الحقيقة الى تنظيمات دفاعية ليست ودية ولا مرضية لاسرائيل »

وقد كشف نائب بريطانى هو انتونى جرينوود فى نفس الجلسة سر التحفظ حول اسرائيل الذى اصر عليه نورى السعيد فى خطابات متبادلة بينه وبين عدنان مندريس قبيل عقد الحلف ، فقال :

« انه لمن الخطأ على ما أظن أن نعلق أهمية كبيرة على الاشارة التى وردت حول مركز اسرائيل فى الخطابات المتبادلة بين عدنان مندريس ونورى السعيد ، وأنا أشك كثيرا أن يكترث العراق حقا بالمشاكل الناجمة على حدود بعيدة عنه جدا كحدود اسرائيل واعتقد ان تركيا تساهم كذلك فى عدم الاكتراث هذا ، وان الاشارة الى اسرائيل لم تدرج فى الخطابات المتبادلة الا ليتخذ العراق منها مبررا يصون بها ماء وجهه ازاء الموقف الذى وقفته مصر ، فينبغى أن تدرك هذه النواحى فى مناقشة الميثاق » .

ولقد كان عزل العراق عن المعركة ضد الصهيونية واسرائيل هو أكبر خدمة أداها حلف بغداد ثم مشروع ايزنهاور لاسرائيل والاستعمار . وذلك لأن عزل جيش العراق عن هذه المعركة كان سببا فى جعل التوازن العسكرى قائما لمدة من الزمن فى مصلحة اسرائيل .

ولأن تحالف العراق مع تركيا وايران وهما من أصدقاء اسرائيل وعملائها الاقتصاديين كان سببا فى خلق ثغرات هامة فى الحصار الاقتصادى حول اسرائيل

ولهذا لم يثر حدث من الذعر والفزع فى اسرائيل مثلما اثارت ثورة العراق وقضائها على الأسرة المالكة هناك ولقد ذهبت صحيفة السكوتسمان البريطانية الى حد القول :

« ان العراق على أى حال لم يكن محل الاعتبار الأول بل كانت إسرائيل لأن العراق سقط والأردن سيسقط بلاشك »

الرجعية العربية :

كانت الرجعية العراقية بعد انهيار الرجعية المصرية وأسرة محمد على هى أقوى رجعية عربية قائمة ومدربة على خدمة الاستعمار .

وقد حرص الاستعمار البريطانى منذ احتلال العراق على خلق فئة قوية من السياسيين تسندهم طبقات متأخرة ذات مصالح واسعة من الاقطاعيين والعشائريين لتحكم العراق ولتكون محورا تلتف حوله الرجعيات العربية

ولقد زها فاضل الجمالى يوما بهذه المدرسة قائلا : « ان فى العراق رجالا نشأوا فى مدرسة الملك فيصل الأول ممن اختطوا للعراق سياسة واضحة لا التواء فيها ولا غموض نجعل العراق يقف الى جانب امم العالم الحر مع صرف واردات النفط فى سبيل اعمار العراق .

« وقد كان للمأساة السورية أثر عميق فى تكوين سياسة الملك فيصل الواقعية التى وضعها للعراق ولا يزال العراق حتى يومنا هذا يسير على الخطوط الرئيسية التى وضعها جلالته سواء فى سياسته العمرانية أو فى سياسته الخارجية . ولاشك أن الملك فيصل الأول يعتبر أعظم سياسى عربى حديث نشأ فى هذا العصر وكانت روحه روحا عربية تتطلع الى الغرب »

وقد كانت الرجعية العراقية سندا لكل الرجعيات فى العالم العربى من مراكش حتى الخليج بل وكما قالت صحيفة سودانية كان نفوذهم يمتد الى افريقيا ويسعى لتكتيل كل الرجعيات العربية والأفريقية ضد الجمهورية العربية المتحدة .

وقد تزعمت الرجعية العراقية فكرة تكتيل الرجعيات الاسلامية والعربية والأفريقية وأنفقت الملايين من الجنيهات ونثرت الآلاف من العملاء ، بل وأرادوا يوما تزويج الملك فيصل من ابنة سلطان مراكش تدعيما لهذه السياسة ، حتى انهاروا وكان انهيارهم كسرا

للعموذ الفقرى للرجعية العربية كلها .

اثر ثورة العراق على أهداف الثورة العربية

والفصل الأخير الرئيسى هو استعراض أثر ثورة العــراق على أهداف الثورة العربية الثلاث ، وهى :

(١) الحرية (٢) الوحدة (٣) الاشتراكية

الحــرية

كانت ثورة العـــــراق أحد احداث اربعــة تاريخيــة متكاملة متنابعة متفاعلة متجاوبة مع بعضها أضرمت وحققت المعركة النهائية لتصفية الاستعمار فى الشرق العربى وهى :

١ ــ ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ فى مصر

٢ ــ ثورة مارس سنة ١٩٥٤ فى سوريا

٣ ــ ثورة نوفمبر سنة ١٩٥٤ فى الجزائر

٤ ــ ثورة يوليه سنة ١٩٥٨ فى العراق

وليس ادل على تفاعلها وتجاوبها مما صرح به السيد فرحات عباس ، رئيس جبهة التحرير الجزائرية غداة نجاح ثورة العراق من أن « هذا يساوى عشرون فرقة عربية مدرعة دخلت الجزائر ».

وقد كان تحرير العراق فى ذاته هو أعظم عمل وأعظم أثر للثورة على تحرير العرب ، فقد تحول العراق من قاعدة رجعية وتخريب الى قاعدة دفع وتطور وثورة ، وأصبحت كل موارده الطبيعيـــــة والبشرية ، والمدنية، والعسكرية، سلاحا منأسلحة الثورةبعد ماكانت سلاحا من الاسلحة الموجهة ضدها .

ولقد كان العراق هو قاعــدة لكل المؤامرات والمنــاورات ضد التورة العربية ، بل لقد كانت أهداف حلف بغداد ومشروع ايزنهاور

التى كان العراق قاعدتها هى ضرب الحركات الوطنية والثورية فى داخل العالم العربى أولا .

وكانت الرجعية العراقية هى السند الأول والممول الأول لكل الرجعيات فى العالم العربى ، وكل مشاريع التخريب والتدمير كانت تتم دائما بمشورتها وبناء على اقتراحاتها .

وانهيار الرجعية العراقية ، وانقطاع الموارد عن عملائها الكثيرين الذين كانوا منبثين فى كل ارجاء الوطن العربى ، والصدمة المعنوية والمادية التى لقيها هؤلاء العملاء بعد الثورة ، هى دفعة كبرى للقوى الوطنية والمتحررة .

واذا كانت صحيفة التايم الامريكية قد سمت ثورة العراق « سقوط الباستيل » فان سقوط الباستيل فى فرنسا عقبه سقوط كل « باستيل » آخر فى اوروبا .

على أن أهم أثر لثورة العراق سيكون فى البلاد العربية والبلاد الاسلامية المجاورة وكان الاستعمار قد بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأكد منذ ثورة مصر، سياسة تركيز استعماره وتكثيفه فى مناطق الخليج العربى والامارات والمحميات المجاورة ، وذلك تأمينا لمصالح وثروة البترول المخزونة والقائمة فيه ، وكان يطمح باقامة « امبراطورية بترولية » فى تلك الارجاء تعوض كل ما ضاع وتحتفظ بكل ما يمكن الاحتفاظ به .

وقد أخذت الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا تعملان ، متنافستان أو متعاونتان فى وضع المشاريع بهمة ونشاط لاقامة اتحادات فيدرالية أو ثنائية أو اقامة كتلة عربية عريضة من العراق والسعودية ومحميات وامارات الخليج وعدن ، واتبعت الدولتان الاستعماريتان فى ضرب الحركات الوطنية والثورية النامية باضطراد وحماس فى تلك المناطق ، وسائل وحشية ، تتراوح بين نفى زعماء البحرين الى سيشل أو التمثيل بعمال البترول فى أرامكو أو تدمير مواقع ثوار عمان بقاذفات القنابل أو خلع سلطان لحج وسجن

زعماء عدن الوطنيين .

وثورة العراق هى أكبر صدمة لهذه الامبراطورية البترولية التى تمنت صحيفة التايمس يوما لو كان شاعر الاستعمار كبلنج حيا لكى يتغنى بها ، واصبحت ثورة العراق أكبر سند القوى العربية الثورية فى تلك المنطقة كلها لكى لا تحارب وهى تخاف أن تطعن فى ظهرها وبحراب عربية عراقية .

الوحدة

كانت الثورة العراقية الى حد كبير نتيجة عملية من عمليات الوحدة العربية ، وهى قيام الجمهورية العربية المتحدة من وحدة مصر وسوريا ، وطبعا لم تكن نتيجة لهذه الوحدة كما تصور المستر دالاس ، بتفكيره المريض السقيم ، ولكن قيام قاعدة عربية ثورية تمتد من جبال طوروس حتى أسوان ، كان دفعة عظمى لقوى الثورة والتحرر فى لبنان والعراق ، واذا كانت هذه الوحدة بين مصر وسوريا التى قامت فى ظروف صعبة وعسيرة وعاشت كل يوم من حياتها فى خطر ، قد استطاعت ان تحقق هذه النتائج التاريخية الباهرة ، فان تصور أثر هذه الوحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحدة يبدو واضحا .

وثورة العراق قد حطمت المؤامرة التى اعتمد عليها الاستعمار منذ قيام الجامعة العربية ونشوب الثورة العربية ، وهى عزل مصر وعزل العراق ، وهما أهم بلدين عربيين عن بعضهما ، وزرع العداء والبغضاء والتنافس بينهما ، أو خلق محورين عربيين متعاديين احدهما ملتف حول مصر والآخر ملتف حول العراق .

وقد كان هذا ميسورا حينما كان التنافس قائما بين أسرة محمد على والهاشميين على زعامة العالم العربى ، وحينما كان التنافس قائما بينهما على خدمة الاستعمار ، وكان ميسورا بواسطة سياسيين

كنورى السعيد الذى كان ينشر هذه الفرية ولا يترك مناسبة الا ويعلن « اخواننا المصريين حساسون من هذه الناحية، ناحية الزعامة والاولوية فى العالم العربى»، وكانت ميسورة أيضا بنشر الثقافة والتزييف الاستعمارى ، وكان المؤرخون والمعقبون الاستعماريون يجهدون أنفسهم دائما فى تعميق هذا الخلاف وفلسفته حتى لقد ذهب احدهم وهو «آلان كيركبرايد» الذى ظل عشرة سنوات سفيرا لبريطانيا فى الاردن، الى ان هذا العداء قديم قدم التاريخ وانه متأصل منذ الحروب بين الآشوريين والفراعنة .

وبانهيار الاستعمار وعملاؤه وتراثه فى العراق استقام جناحى العالم العربى واصبح يستطيع أن يحلق فى أعلى الآفاق ، « والعالم العربى طائر ضخم جناحاه هما العراق ومصر » كما قال ، لسخرية القدر ، فاضل الجمالى .

ولم يعرقل الوحدة العربية شىء مثل تخلف العراق ، ونكوص العراق ، ووجود حكومات الخونة فى العراق .

ولقد كان هذا سببا فى :

١ ــ فشل الجامعة العربية وهى المنظمة التى تعبر عن وحدة الأمة العربية والتى تدعم هذه الوحدة .

٢ ــ تزعزع أركان كتلة الحياد العربية ، والكتلة الأسيوية الأفريقية عامة .

٣ ــ تزعزع مركز العرب فى هيئة الامم المتحدة .

ولقد فشلت الجامعة العربية لأنها لم تكن تمثل الشعب العربى داخليا أو خارجيا . وذلك لأن الحكومات الرجعية التى كانت تتكلم وتحضر فى مجلس الجامعة لم تكن ممثلة للقوى الوطنية الحقيقية النامية فى الوطن العربى ، بل كانت حكومات مظلمة تتحدث باسم الاستعمار وتستند الى حرابه وتعمل دائما بوحيه ولصالحه. ولم تكن لهذا تستطيع، ولا تريد، أن تحقق وحدة حقيقية للعرب ،

ولم تكن تستطيع ان تبدع سياسات وطنية عربية تتفق مع امانى الشعب العربى ومطالبه ومصالحه .

ولم تكن الجامعة العربية أيضا ممثلة للوطن العربى تمثيلا كاملا فقد ظلت دول شمال افريقيا العربية الثلاث وهى تونس والجزائر ومراكش بعيدة عن الجامعة رغم الدور الذى قامت بهالقوى الوطنية العربية فى ثوراتها التحريرية .

وبقيت أيضا امارات وسلطنات ومحميات الخليج محرومة من هذه العضوية نظرا لوقوعها تحت السيطرة الكاملة أو شبه الكاملة للاستعمار ، ولقد كان العراق هو سند القوى الرجعية فى الجامعة العربية وكانالمتحدث الأول باسممصالح الاسعمار وبوحيه، وكان العراق هو الذى لعب دورا رئيسيا فىابعاد دول شمال افريقيا عن الانضمام للجامعة ، وكانت رحلات فاضل الجمالى المستمرةاليها، تهدف دائما الى هذا الهدف . وكانت حجة حكومات تونس ومراكش دائما هى أن عدم انضمامها للجامعة مرجعه رغبتها فى تفادى الحرج امام مصر والعراق اللتين تتنازعان زعامة الجامعة العربية !!

ولقد كان ابتعاد دولتى شمال افريقيا العربية عن الجامعة وتطلعهما الى الغرب ، شوكة فى ظهر الثورة الجزائرية ، وطعنة للثورة العربية عامة ، ولهذا فان سقوط الحجج التى كانت تمنع انضمامها ، وانضمامها الفعلى ، سيكون استكمالا لكيان منظمة من منظمات هذه الثورة ، خاصة وقد تالفت حكومة جزائرية ستكون عضويتها فى الجامعة ركنا من اركانها الرئيسية .

وقيام جامعة عربية متحررة كمنظمة اقليمية للامة العربية تكون جزءا من كتلة الحياد الاسيوية الافريقيةوتطبيقا لميثاق الامم المتحدة. هو استكمال لجهاز من أهم اجهزة الثورة العربية .

ولقد كان انطواء العراق فى سياسة الاحلاف ، عاملا هاما فى تزعزع كيان الكتلة الحيادية العربية ، ولما كانت الكتلة الحيادية العربية هى الجناح الغربى لكتلة عربية هى الجناح الغربى لكتلة

الحياد عامة ، بل والدرع الغربى لها ، فان العراق كان يزعزع هذه الكتلة كلها .

ولقد شن عملاء الاستعمار فى العراق حملة شعواء على الحياد وسياسة الحياد ، وكان مفكر الخيانة الأكبر فاضل الجمالى لا يترك فرصة الا ويطعن الحياد وسياسة الحياد .

وقد وقف فى البرلمان العراقى البائد ليبرر الانضمام للاحلاف فقال :

« هناك الفلسفة أو السياسة النهروية تغزو بعض البلاد العربية، وهذه السياسة تقول بأننا اصدقاء الجميع والجميع أصدقاء لنا ، فنحن أصدقاء الغرب والشرق معا ونتعاون معهما . ونحن مع احترامنا العظيم لنهرو زعيم الهند نتفق معه اتفاقا كليا لمقاومته للاستعمار وفى سياسته فى الاصلاح الاجتماعى والعمرانى ». ولكننا لانستطيع الاتفاق معه فى سياسة الدفاع فى بلده. وأقول بكل تأكيد اذا كانت سياسة نهرو صالحة فهى ليست صالحة للبلاد العربية».

وقال فى خطبة أخرى: « الحياد معناه فتح الباب أمام الشيوعية لتعمل بحرية، والحياد معناه السير فى ركاب الشيوعية وأنا أؤكد لكم أن دولا كبرى صديقة عندما تدعو أو تنادى بالحياد انما هى تسير فى ركاب الشيوعية وهناك فكرة أخرى عن الحياد وهى فكرة الاستفادة من الطرفين اذ يقال لم لا تذهب مع هؤلاء واولئك فتكسب من الجهتين ، وهذه النظرية فاسدة من أساسها لأن الشيوعيين لن يذهبوا معك الا اذا اطمأنوا أنك تسير مع سياستهم ، وأن الذين يقولون ان مصر أو أى دولة أخرى تريد الاستفادة من الطرفين انما هم ذوو نظر قصير وقليلو خبرة » .

ولا حاجة طبعا لبيان الزيف والوهن والخيانة فى حجج فاضل الجمالى وهدفه من الحملة على الحياد .

وقد كانت الرجعية العراقية تنادى دائما بأن اعداء العرب هم

الشيوعية والصهيونية . ولم يذكروا قط الاستعمار لأن الاستعمار انتهى ، وبريطانيا غيرت نفسها ، ولم يبقى الا أن يغير العرب أنفسهم ، وأمريكا لم تكن فط دولة استعمارية ، وفرنسا ستضطر باقتناع أو بالكره الى العدول عن استعمارها ، أما الصهيونبة ، فان خونة العراق منحوها بانضمامهم الى حلف بغداد ومشروع ايزنهاور كل الامان والطمأنينة التى تريدها ، كما بين ابدن فى مجلس العموم.

أما الشيوعية فقد حولوا العراق الى دولة بوليسية ارهابية وسجن كبير مخيف باسم محاربتها وحتى « الاساليب الروحية والمادبة » التى تشدق بها فاضل الجمالى يوما كالطرق المثلى لمكافحتها لم يطبق منها شيء مطلقا .

وأما الاستعمار حليف الصهيونية وسندها ومقيم دعائمها فقد نسوه تماما .

وكانت الرجعية العراقية ترتعد خوفا من سياسة الحياد ومواجهة الأسس النظرية والعملية لهذه السنياسة وذلك لأن الحياد هو ارادة الدول الاسيوية والافريقية فى أن تحتفظ باستقلالها وشخصيتها فى السياسة الداخلية والخارجية .

والحياد هو ارادة الدول الاسبوية والافريقية فى أن تساهم فى حياة العالم بفلسفات جديدة وسياسات جديدة ، ونظم اقتصادية واجتماعية جديدة ، منبعثة من تراثها المجدد ومن تفاعلها الحر مع نراث العالم كله .

والحياد هو ارادة الدول الاسيوية الافريقية فى ان تحدد مصلحتها ومنفعتها وأن تبنى علاقاتها بدول العالم على أساس المنفعة والمصلحة المشروعة والمتكافئة ، وعلى أساس المثل والمبادىء التى تتفق وتراثها وكيانها .

والتعاون بين الحياديين وبين الكتلة الشرقية ليس فتحا للباب أمام الشيوعية ، لأن الكتلة الحيادية قد قامت وازدهرت برغم الكتلة

الغربية والشرقية .

وحينما بدأت الدعـوة للحياد واعتنقتها دول آسيا وأفريقيـا المتحررة وقفت الكتلة الغربية منها موقفا معاديا ووقفت الكتـلة الشرقية منها ايضا موقفا معاديا .

وما لبثت الكتلة الشرقية ان غيرت موقفها لاسباب عدة :

١ ــ اشـتدت وطأة سياسة الحصـار التى طبقتها السياسة الامريكية نحو الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية، وذلك حينما جاء دالاس واراد أن يسير بسياسة الحصار خطوة أخطر نحو «التحرير» أى الحرب ضد هذه الكتلة ؟؟ رأت الكتلة الشرقية أن لا بد لها من كسر هذا الحصار الذى يطبق عليها ، لتأمين نفسها ولتأمين العالم، من الخطر الامريكى الداهم ، وغيرت سياستها تغييرا جوهريا ازاء دول الحيـاد ، وبدأت تدعم الصداقة معها جميعـا وعلى أسس « البانشاسيلا » الخمس التى اتفق عليها بين نهرو وشوان لاى فى دلهى سنة ١٩٥٤ ووجدت الدول الحيادية أن مصلحتها أيضا تقضى بالتصادق والتعاون مع الكتلة الاشتراكية لأن الخطر الأمريكى يهدد الحيادين تماما كما يهدد الاشتراكيين ، لأن المستر دالاس يضع الحياديين فىمرتبة اخطر من الشيوعيين، ولأنالكتلةالاشتراكية تملك السلاح وتملك الثروة التى تمكن الكتلة الحيادية من سد النغرات الكبيرة فى تسليحها وفى بنائها الاقتصادى وذلك بغير ان تتنازلالدول الحيادية عن مبادئها أو سياستها .

٢ ــ كان انتصار ثورة الصين ، وتدعيم ورسـوخ هذه الثورة داخليا ، وفهم الصين العميق للعقلية والروحالاسيوية الجديدة سببا رئيسيا فى التقريب بين الحياديين والاشتراكيين ، وقد كانت دول افريقيا واسيا تشعر بايمان وثقة مطلقة فى الصين الجديدة وقيادتها ونورتها ، بحيثيصبح التعاون بين اسيا الاشتراكية واسيا وافريقيا الحيادية قائما على أسس من المصلحة ومن الفهم والعطف العميق.

٣ ــ حصلت دول آسيا وافريقيا على حرياتها بعد ثورات وكفاح

طويل وقد وقفت الكتلة الاشتراكية منذ ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ موقفا سليما لا تناقض ولا أخطاء جوهرية فيه من حركات التحرير الوطنى فى اسيا وأفريقيا ولهذا كانت عناصر الثقة قائمة ومتوفرة .

٤ ـ أدركت الكتلة الاشتراكية خطأموقفها ازاءالمشكلةالاسرائيلية، وادركت حقيقة اسرائيل وخيانة اليسار فى اسرائيل، وغيرت موقفها تغييرا كليا وشاملا منها

٥ ـ ان قيام كتلةحيادية عربية فى « أهم منطقة استراتيجية فى العالم » وهى الشرق العربى ، هو أكبر ضمان للسلام فى العالم كله.

وحينما تسيطر على البحر الابيض والأحمر والبحر العربى والخليج دول حيادية سلامية فلن يستطيع أحد ان يشعل حربا كبيرة أو صغيرة قط .

* * *

وثورة العراق تعنى انهيار حلف بغداد ، وانهيار حلف بغداد يعنى انهيار الحلقة التى كانت تصل بين حلف الاطلنطى وحلف جنوب شرق اسيا ، ومغزى هذا لا يحتاج الى بيان .

وبانضمام العراق الى سياسة الحياد ينهار كل تلاميذ فاضل الجمالى وكل الجناح العربى الخائن الذى كان يدعو فى سفسطة واضحة الى التحالف مع الغرب والذى ذهب يوما الى حد تفضيل « الانضمام الى حلف الاطلسى عن الانضمام الى الجامعة العربية ».

هيئة الأمم :

ولقد كان انحراف العراق وخيانة حكامه سببا فى تزعزع كيان ومقام الدول العربية فى هيئة الامم المتحدة ، ولم يكن هناك شىء يسىء الى الدول العربية والى الأمة العربية مثل انقسامها فى المحافل الدولية الى فريقين متصارعين متعاديين ولم تشهد الأمم المتحدة منظرا أقبح من فاضل الجمالى وهو يلقى خطابه البذىء المحموم

ضد الجمهورية العربية المتحدة من على منبر الأمم المتحدة ودفاعا عن كميل شمعون .

وقد قامت ثورة العراق فى ظروف دولية تاريخية حاسمة ، وساهمت بطريق مباشر وغير مباشر فى دعم هذه الظروف .

وقد قامت الثورة العراقية فى وقت بلغ التعادل فى التسليح الذرى والنووى حده الأعلى بين الكتلتين الغربية والشرقية بل وسار الى صالح الكتلة الاشتراكية بعد اختراع السبوتنيك . وفى ظل هذه الظروف أصبح قيام حرب عالمية امرا مستحيلا لا يفكر فيه أحد فى اى الكتلتين .

وقد أرادت الكتلة الغربية لدى قيام ثورة العراق ان تجرب استراتيجيتها الجديدة وهى استراتيجية الحرب الصغيرة ولكنها لم تستطيع ازاء تصميم الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية الجديدة على المقاومة

وبهرت ثورة العراق العالم خاصة الدول الصغيرة حينما انتقلت المشكلة الى هيئة الأمم المتحدة ولقيت قضية العرب تأييداً من أوساط وبلاد لم تتوقع تأييدها ، ولأول مرة عجزت الكتلة الغربية الاستعمارية عن الحصول على أغلبية مطلقة لتأييد قراراتها ، وهى التى كانت تفخر دائما باغلبيتها الاوتوماتيكية فى هيئة الأمم .

واذا ما كان العالم مقبلا على فترة لا مناص فيها من التعايش السلمى ومن اللجوء الى هيئة الأمم المتحدة لحل المشاكل بدلا من اللجوء الى الحرب الباردة أو الساخنة، فان الكتلة العربية، متضامنة ومتعاونة فى قلب الكتلة الافريقية الاسيوية، تستطيع أن تلعب دورا جوهريا تاريخيا فى السلام واستقرار العالم بفضل ثورة العراق .

الاشتراكية :

الثورة العربية هى ثورة اشتراكية ديموقراطية تعاونية .

والاشتراكية العربية هى تطبيق للاشتراكية الاسيوية الافريقية التى نعتنقها وتطبقها دول افريقيا واسيا المتحررة . وتهدف هذه الاشتراكية الى خلق وسط يكون العمود الفقرى للامة العربية ويقف بين اليمين الرجعى وبين اليسار المتطرف .

والاشتراكية العربية هى تعبير عن مرحلة التوازن والتعايش الذى تمر به الثورة العربية . لان الثورة العربية ليست ثورة طبقة ضد طبقة ولكنها ثورة عدة طبقات متحالفة ضد عدوها الجماعى وهو الاستعمار .

وستساهم ثورة العراق مساهمة كبرى فى تدعيم الاشتراكية الديموقراطية العربية . والاشتراكية الديموقراطية العربية لن تتدعم الا حينما يلتقى المفكرون الاحرار العرب من العراق وسوريا والجزائر وارجاء الوطن العربى جميعا لدراسة مجتمعاتنا وتراثنا دراسة شاملة ولكشف قوانين تطورها والشىء الجديد فيها وما نختلف أو نتفق فيه مع النظريات الاخرى .

ولما كانت الديموقراطية هى الشكل السياسى للاشتراكية ، فان ثورة العراق هى لهذا تدعيم للديموقراطية العربية .

ولقد كان من المستحيل قيام ديموقراطية عربية حقيقية فى الماضى ، وصحيح أن الشعب العربى فى كل مكان كافح كفاحا مرا متصلا فى سبيل الديموقراطية وذلك كجزء من كفاحه للتحرر ، ولكن لم يكن من الممكن أن تتحقق الديموقراطية قبل تحقق الاستقلال .

وذلك لأن الاستعمار لم يسمح بقيام أحزاب سياسية حقيقية تقوم على برامج ومبادىء وتنظيمات شعبية ، وتقود كفاح الشعب ، وحينما نشأت هذه الأحزاب فى بعض أرجاء العالم العربى ركز الاستعمار كل جهدم لتفتيتها أو القضاء على ثورتها ولم يتورع أن يستغل فى ذلك أى أساليب وحشية من اغتيال السردار حتى

حريق القاهرة مثلا فى مصر . لأن الاستعمار كان يرى أكبر خطر عليه فى قيام تنظيمات سياسية جماهيرية تستطيع تعبئة الشعب وقيادته .

ولقد قام الجيش فى العالم العربى بدور حاسم فى الثورة العربية نتيجة لعجز الاحزاب بدرجات متفاوتة عن تحقيق الثورة ، ونظـرا لأن الجيش كان القوة الوحيدة المنظمة المسلحة التى تستطيع القيام بعمل ضد الاستعمار

ولقد اضطر الاستعمار لتكوين جيوش عربية ليستعملها وقودا للمدافع ، وكان التناقض الحاسم والتاريخى أن نشأت قطاعات وطنية فى هذه الجيوش استطاعت أن تشترك بشكل حاسم فى تحقيق الثورة .

ولذا فان من المشاكل الرئيسية فى الثورة العربية تنسيق العلاقة بين العسكريين والسياسيين وتنسيق العلاقة بين السياسيين أنفسهم لتحقيق الوحدة الداخلية اللازمة .

وقد وفقت ثورة العراق فى حل هذه المشـــكلة وقامت ثورة العراق على أساس تنسيق سياسى عسكرى دقيق محكم ، وهى تسير بخطوات متئدة فى طريقها وتعطى نموذجا يحتذى .

ولما كانت الديموقراطية لا يمكن أن تتحقق تحققا شاملا ، الا فى ظل استقرار سياسى واستقرار اقتصادى، وفى ظل اتفاق بين الأغلبية على المبادىء الجوهرية للحياة السياسية ، فان ثورة العراق قد حققت قسطا كبيرا من الامان والطمأنينة يسمح بقيام ديموقراطية سياسية فى هذا الشق من العالم العربى ، وقيام ديموقراطية تكتنفه دائمـــا صعوبات فى ظل الخوف من الاسعمار والرجعية الداخلية .

ولكن أثر ثورة العـــراق الأكبر على أى حال هو فى تحقيـــق الديموقراطية الاقتصادية العربية .

وقد طبق الاستعماريون لدى احتلالهم للعراق سياسة تقضى

« باعادة انشاء المجتمع العشائرى ليحكمه شيوخ ذوى هيبة يشرف عليهم وينصحهم حكام سياسيون بريطانيون وفق مشروع مشابه لمشروع وضعه وطبقه فى بلوخستان السير روبرت ساندمان . »
قيل عنه «أن كل ادارى استعمارى بريطانى عظيم كان يضعه عن وعى أو لاوعى مثلا يحتذيه أو يقتفى أثره »

وطبقا للسياسة الاستعمارية تركزت الثروة فى أيدى طبقات وفئات اقطاعية ، وموالية للاستعمار، وأصبح العراق مثلا الاقتصاد الاستعمارى المتأخر القائم على الزراعة الاقطاعية وعلى الصناعات الاستخراجية لانتاج المواد الخام لحساب المستعمر . والذى يسيطر علبم الاقطاعيون والعشائريون أو السماسرة والمضاربون .

واذ كان العراق من أغنى الأقطار العربية زراعيا وصناعيا بامكانياته وموارده الكامنة ، فقد كان اقتصاده الاستعمارى هذا شديد الوطأة لا على شعب العراق فقط ولكن على الشعب العربى كله ، فقد عرقل التنمية والتكامل الاقتصادى العربى عامة .

وثورة العراق تعنى نهاية هذا الاقتصاد الاستعمارى الاقطاعى الاحتكارى، وتعنى تحرير اقتصاد العراق ، لكى يسد حاجات شعب العراق والشعب العربى عامة .

والمسألة الرئيسية فى حياة الشعب العربى عامة هى الاصلاح الزراعى والتصنيع ، وهما مرتبطان ارتباطا وثيقا ، وقد أعلنت ثورة العراق الغاء الاقطاع ، وتحرير الفلاح ، وهذا يعنى اطلاق القوى الكامنة فى الريف ، وأرض العراق بسعتها وخصبها التاريخى لاتستطيع فقط اشباع جوع فلاحى العراق للأرض ولكن تستطيع أيضا امتصاص كل الزائد من الفلاحين العرب .

وتصنيع البلاد العربية لايمكن أن يتحقق تحقيقا كاملا شاملا الا على اساس اقليمى شامل ، فان تكامل الاقتصاد العربى كله حقيقة ثابتة ، والتصنيع يحتاج الى رؤوس اموال والى خبرة والى

ايدى عاملة ، وهذه لا تزال قليلة وموزعة توزيعا غير متكافىء فى أرجاء العالم العربى ، ويمكن باحصاء ما هو موجود وتنسيقه واستغلاله فى مكانه الصحيح أن يتم التصنيع بأسهل وأوسع مايمكن

والاقتصاد العربى فى هذه المرحلة لابد له وأن يقوم على التخطيط الجزئى أو مايسمى الاقتصاد المختلط » وذلك لاعطاء الاقتصاد الفردى فرصته فيما يمكن أن ينجح فيه ولاعطاء الاقتصادالاشتراكى فرصته فيما يمكن ان ينجح فيه وفيما لابد ان يكون فيه» وخلق منافسة بين القطاعين تؤدى الى تحقيق مطالب الشعب .

وهذا التخطيط يصبح سهلا وميسورا على النطاق العربى كله .

ولقدحطمت سياسةالعراق القيود التى فرضت على العراق وحرمته من التعاون مع كل دول العالم على قدم المساواة ، وعلى أساس المنفعة المتساوية والمتكافئة ، وأصبح العراق الآن يستطيع أن يتلقى المساعدات الاقتصادية من كل بلاد العالم على حد سواء .

وبعد ثورة العراق وتحقيق التكامل الاقتصادى تستطيع البلاد العربية ان تنظم المساعدات الخارجية على نطاق عربى جماعى يوفر لها كل الضمانات ويزيل كل الشكوك ، ويحقق أكبر النفع .

وبعد ثورة العراق تستطيع البلاد العربية على نطاق واسع ان تستعين بمنظمات هيئة الأمم وخبرائها ، وهى منظمات ينتظر ان تتزايد اهميتها ونشاطها منذ الآن .

ولا شك انه أصبح ممكنا بعد ثورة العراق اقامة سياسةبترولية وطنية تدعم الاقتصاد العربى لا الاقتصاد الاستعمارى الغربى . وتقيم العلاقة بين الشركات المنتجة والحكومة على أسس تجارية عادلة .

ولقد كانت عوائد بترول العراق تنفق على مشاريع أعمار وهمية يقصد منها خلق « واجهة » اقتصادية لا لحل المشاكل الجوهرية للعراق ، وترمى الى منح بعض المناصب لأبناء السماسرة والعملاء أو لشراء بعض الوطنيين أو لمنح بعض الفرص للمقاولين والمضاربين

لزيادة مكاسبهم .

وحينما تعطى العراق النموذج فى معاملة شركات البترول وفى استغلال عوائد البترول ، فان من الممكن تنسيق العلاقات بين شركات البترول العالمية والدول العربية على أساس تجارى عادل ، وبذلك يفتح موارد البترول العربية لكل الشركات بلا تفرقة ولا احتكار ويضمن المصالح العربية والمصالح العالمية على أساس أهميـــة البترول فى صناعات السلام وفى رخاء الانسانية عامة ، ما دام البترول هو عماد الحضارة الحديثة .

وبعد ثورة العراق يمكن قيام سوق عربية مشتركة تكون جزءا من السوق الأفريقية الأسيوية التى تبحثها الآن دول أفريقيا وآسيا لحماية نفسها من المشروع الاستعمارى الخطر وهو السوق المشتركة الأوربية التى أقامت حلفا من الاستعمار الجماعى لاستغلال أفريقيا وآسيا .

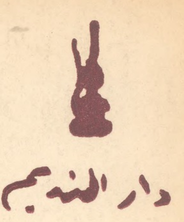
* * *

وليس هناك حد لمغزى ثورة العراق ... ومن بغداد المتحررة أصبح سهلا أن نرى الحلم الكبير الذى ماتت من اجله الآلاف وتعيش من أجله الملايين ، وهو قيام أمة عربية عظيمة ودولة عربية عظيمة تدعم سلام العالم ورخاء العالم ، وتحمى بوابات العالم الرئيسية ، وتؤمن .. ان الحرب فى أى مكان تهديد للسلام فى كل مكان والفقر فى أى مكان تهديد للرخاء فى كل مكان .

فهرست

صفحة

صفحة



كتب تحت الطبع

- الصين الشعبية

بقلم محمد عوده

(طبعة ثانية موسعة)

- ثورة مصر القومية

بقلم ابراهيم عامر

(طبعة ثانية معدلة وموسعة)

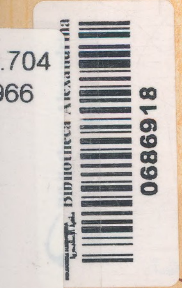
صدر عن دار النديم

- ثورة الجزائر

بقلم على الشلقانى

- تأميم القناة

بقلم ابراهيم عامر



الثمن ١٢ قر